

المقدس  
و  
الدنيوي

SCANNED BY  
JAMAL HATMAL



# رمزية العالم والاستطورة

تأليف: مرسيا إلياد

ترجمة: نهاد خياطة



# والمقدس الدنيوي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٧

---

العربي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق: ص. ب ١٢٧٧٩

الغلاف: الفنان يحيى الشيخ

موسى الياد

# المقدس و الدنيوي

ترجمة: نهاد خياطة

العنوان الاصيل للكتاب

M. Eliade  
Le sacré et Le profane

---

١٩٨٧ / ٣ / ٣٠٠٠

طبع في مطابع دار العلم

## مقدمة الطبعة الفرنسية

كانت كتابة هذا المؤلف الصغير في عام ١٩٥٦، بناء على اقتراح البروفسور ارنستو غراسي، ليكون في عداد مجموعة من كتب الجيب التي أريد لها أن تتصدّر منشورات «روفولت» المعروفة باسم موسوعة روفولت الألمانية. أي أن تصميمه وكتابته كانت من أجل الجمهور الواسع ليكون بمثابة مقدمة عامة لدراسة الوقائع الدينية من الناحية الفينومولوجية (الظاهراتية) والتاريخية.

وقد شجعني على قبول المخاطرة ما لقيته من نجاح امثولة جورج ديميزيل. فالعالم الفرنسي كان جمع في عام ١٩٤٩ تحت عنوان «التراث الهندو-أوروبي في روما» نتائج أبحاثه في الإيديولوجية الهندو-أوروبية والميثولوجيا الرومانية، وضع فيها تحت تصرف القارئ زبدة سبعة مجلدات نشرت في الأعوام الثمانية المتقدمة، على هيئة شواهد طويلة ومختصرات.

قلت ان النجاح الذي أصابه ديميزيل قد شجعنا على القيام بنفس التجربة . لكن المسألة بالنسبة لنا لم تكن مسألة تقديم موجز عن بعض مؤلفاتنا السابقة ، بل أبخنا لأنفسنا ان ننشيء فيها صفحات وأن نفتبس لها امثلة من مؤلفات أخرى وأن نناقشها فيها . ولقد كان في وسعنا أن نأتي بأمثلة جديدة عن كل موضوع تولينا بحثه (المكان المقدس ، الزمان المقدس ، الخ . ) وقد فعلنا ذلك احياناً ، الا أننا آثرنا بعامة أن نتخير الأمثلة من الوثائق التي سبق لنا الاستعانة بها ؛ وبذلك نهىء للقارئ وسيلة الرجوع إلى توثيق اوسع ، وفي نفس الوقت ، أدق وأبين للفوارق .

لهذا المشروع محاسنه ، كما ان له محاذيره ايضاً ، حتى ان مختلف الرجوعات (ردود الفعل) التي اثارها الطبعات الاجنبية من هذا الكتاب قد جعلتنا نتلمس اصابعنا . اذ ان بعض القراء قد ادرك قصد المؤلف الرامي الى ادخاله في ميدان واسع دون إرهاقه بتوثيق مفرط او تحليلات مغالية في تقانيته . بينما كان بعضهم الآخر اقل تقديرأ لهذا الجهد التبسيطي ، إذ كان يفضل للكتاب توثيقاً أوفر ، وتفسيراً أدق . هؤلاء الاخيريون لم يكونوا على خطأ ، لكنهم ضربوا صفحاً عن مسعانا الرامي الى تأليف كتاب قصير ، واضح وبسيط ، يثير اهتمام القراء الذين لم يأتلفوا الا قليلاً مع مشكلات الفينومينولوجيا وتاريخ الأديان . وللحيلولة دون مثل هذه الانتقادات ، عمدنا إلى الإشارة في اسفل الصفحة الى الأعمال التي بحثت فيها مختلف المشكلات المعروضة بحثاً مطوّلاً .

يبقى ان مثل هذا المشروع يفسح في المجال لسوء الفهم ؛



عرفنا ذلك عندما أعدنا قراءة هذا النص بعد ثمانية اعوام . ان نحاول عرض مسلك الانسان الديني homo religiosus ، وخصوصاً إنسان المجتمعات التقليدية والشرقية، في مائتي صفحة، بكل ما يقتضيه مثل هذا العرض من تسامح وعطف، لهو أمر لا يخلو من الخطر. فهناك خشية من أن يفهم مثل هذا الترحيب بالموضوع على انه نوع من الحنين الخفي الى الكمال الذي كان عليه شرط الإنسان القديم - ان هذا غريب عن المؤلف. ليس ما نرمي إليه في هذا الكتيب هو أن نعين القارئ على ادراك ما في الوجود الديني من النموذج القديم والتقليدي من معنى عميق وحسب، وانما ابضاً على تعرف ما في هذا الوجود من صلاحية بما هو قرار بشري، وعلى تذوق ما فيه من جمال و«نبالة».

ان ما نرمي اليه ليس ان نبين ببساطة ان الأسترالي والأفريقي ليس بالحيوان المسكين من انصاف المتوحشين (غير قادر على العد حتى الخمسة، الخ). مما كان يرويه الفولكلور الأنثروبولوجي منذ ما قبل أقل من قرن، بل ان نبين شيئاً أكثر من ذلك - وأعني به ما ينطوي عليه مفهوم الإنسان القديم للعالم من منطق وسمو يتمثلان في سلوكياته ورمزياته وانظمتها الدينية. وعندما يتعلق الأمر بفهم مسلك غريب، او بنظام قيم اجنبية، ليس يجدينا نفعاً ان نتبين مقدار ما فيها من ضلال. فإذا كان كثير من «البدائين» يعتقدون مثلاً ان قراهم او منازلهم واقعة في مركز العالم، يبقى من الأمور غير الهامة ان نعلن ان اعتقادهم هذا غير صحيح. وليس كالتسليم بوجود هذا الاعتقاد، الذي يمكننا ان نفهم به رمزية مركز العالم وما تلعبه من دور في حياة

مجتمع قديم، ما يجعلنا نصل الى ان نكتشف بدقة ابعاد وجوده يتكون بهذه الصفة باعتباره قائماً في مركز العالم.

لقد كان علينا، لكي نبين بصورة افضل ما ينطوي عليه الوجود من النموذج القديم والتقليدي (لأننا نفترض ان لدى القارئ إماماً معيناً باليهودية - المسيحية والإسلام، بل وحتى بالهندوكية والبوذية)، الا نتوسع في بحث ممارسات معينة تتصف بالضلال والهمجية، كأكل لحوم البشر، وصلي الرؤوس، والقرايين البشرية، واسرافات الدعارة، وهي ممارسات حللناها في اعمال لنا أخرى. كذلك لم نتكلم على ظاهرة الضمور والانحطاط التي ما افلح دين قط من وقاية نفسه منها. ثم اننا، اذ قابلنا القدسي بالضيوي، فإنما اردنا ان نبرز ما تجلبه علمنة مملك ديني من افقار. فإذا لم نتكلم على الفائدة التي جناها الإنسان من جراء تجريد العالم من القدسية فلان هذا بدا لنا انه معلوم لدى القارئ بدرجة أو بأخرى.

تبقى مسألة لم نتطرق اليها الا تلميحاً الى اي حد يمكن ان يصبح الدينوي بحد ذاته مقدساً، وإلى اي حد يمكن وجوداً معلماً جذرياً، وجوداً خلا من الله والآلهة، ان يكون نقطة انطلاق لنموذج جديد من الدين؟ المسألة تتعدى صلاحية مؤرخ الأديان، خصوصاً وان السياق ما زال في مرحلته الأولية. لكن من المناسب ان نبين منذ البداية ان هذا السياق قابل لأن يجري فوق اصعدة كثيرة، وان يسعى وراء اهداف مختلفة. فهناك، قبل كل شيء، النتائج الكامنة لما يمكن تسميته باللاهوت المعاصر الذي يبشر بموت الله، والذي يبدو، بعد ان اثبت بطلان جميع المفاهيم والرموز والطقوس التي

تحتضنها الكنائس المسيحية، وكأنه يتطلع الى إنشاء وعي دينوي جديراً للعالم والوجود البشري، الا أنه قابل مع ذلك لتأسيس نموذج جديد من «المخبرة الدينية»، بفضل قانون تلاقي الأضداد الذي يعمل في الخفاء.

ثم هناك التطورات التي يمكن حدوثها انطلاقاً من مفهوم يرى ان التدين يشكل البنية الأخيرة للوعي، وأنه لا يتوقف على المتضادات التي لا حصر لها والزائلة (باعتبارها تاريخية) بين القدسي والديني كالتي نواجهها في مجرى التاريخ. بعبارة أخرى، ان اختفاء «الأديان» لا ينطوي أبداً على اختفاء «التدين»، وان علمنة قيمة دينية لا يشكل غير ظاهرة دينية تكشف، في نهاية المطاف، عن قانون التغير العالمي الذي يطراً على القيم الانسانية. ان اصفاء صفة «الدينية» على مسلك كان فيما مضى «مقدساً» لا ينطوي على حل للاستمرارية: «فالديني» ليس غير مظهر جديد لنفس البنية التكوينية التي بُني عليها الإنسان، وكانت فيما مضى تتجلى في تعبيرات «مقدسة».

أخيراً، هناك امكانية ثالثة للتطور: نحن اذ ننبذ التضاد القائم بين المقدس والديني، وهو التضاد الذي يشكل الصفة المميزة للأديان، فإنما نبين أن المسيحية ليست «ديناً» وانها بالتالي ليست بحاجة الى ان تشطر الواقع شطرين على النحو المتقدم، وان المسيحي لم يعد يعيش في الكون (كوسموس)، بل في التاريخ.

ثمة افكار من التي أثينا على ذكرها سبق لنا وقمنا بصياغتها على هذه الدرجة او تلك من المنهجية، وافكار أخرى تركنا للقارىء أمر استخلاصها من مختلف المواقف الحديثة التي تتخذها «اللواهيت»

المجاهدة. وقد رأينا اننا غير مضطرين الى مناقشتها، اذ لا تدل الا على ميول واتجاهات وليدة، لا نعلم حتى مقدار حظها من البقاء والتطور.

سره اخرى، تفضل صديقنا العزيز العالم الدكتور جن غويارد فراجع النص الفرنسي، فليقبل منا الإعراب عن خالص عرفاننا.

جامعة شيكاغو

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٤

## المدخل

الدويّ العالمي الذي أحدثه كتاب رودولف أوتو، «القدسّي»<sup>١</sup>،  
(١٩١٧)، ماثل في كل ذاكرة. ولا شك أن الفوز الذي حققه هذا  
الكتاب انما يرجع الى ما اتّصف به منظوره من أصالة وجدة. فبدلاً من  
أن يدرس فكرتي الله والدين، عمد الى تحليل أنماط الخبرة الدينية.  
فاستطاع، بما تمتع به من نفاذ رؤية سيكولوجية مؤيدة باستعداد مزدوج  
هو استعداد رجل اللاهوت والمؤرخ الديني، ان يستخلص من هاتين  
الفكرتين محتواهما وخصائصهما النوعية. وهو إذ ضرب صفحاً عن  
الجانب العقلي والنظري من الدين، أوضح بكل جلاء جانبه غير  
العقلي. كان اوتو قد قرأ افكار لوثر، وفهم ما كان يعنيه «الله الحي»  
للمؤمن. لم يكن إله إيراسموس إله الفلاسفة؛ لم يكن فكرة، او  
مفهوماً مجرداً، او رمزاً معنوياً، بل قدرة رهيبة تتجلى في «الغضب،  
الإلهي».

---

Das Heilige \*

لقد كان رودولف مضطراً إلى الاعتراف في كتابه بخصائص هذه الخبرة المروعة وغير العقلية، فكشف عن شعور الرُّوع أمام المقدس، والسر الهائل، والجلال الذي يطلق تفوقاً ساحقاً من القدرة؛ وإلى الكشف عن الخشية الدينية أمام السر الأسر الذي يشيع فيه تمام امتلاء الوجود. يصف أوتو جميع هذه الخبرات بالإلهية numinauses، لأن ما يستثيرها هو تجلّي جانب من القدرة الإلهية. والإلهي يتميز بأنه مختلف جذرياً وكلياً: لا يشبه شيئاً بشرياً أو كونياً؛ بإزائه يشعر الإنسان أنه لا شيء، وأنه ليس الا مخلوقاً، أو أنه «تراب ورماد» كما قال إبراهيم لربه (تكوين ١٨: ٢٧).

يتجلّى القدسي دائماً حقيقة من صعيد آخر غير صعيد الحقائق «الطبيعية». قد تعبر عنه اللغة تعبيراً ساذجاً بأنه الهول أو الرُّوع أو الجلال أو السر الأسر؛ وهذه كلها عبارات مستعارة من المجال الطبيعي الذي يجول فيه الإنسان أو الحياة الروحية الدنيوية التي يحياها. لكن هذه اللغة الاصطلاحية التشبيهية ترجع بالضبط إلى عجز البشر عن التعبير عن «المختلف كلياً»: تستحيل اللغة إلى إحياء بكل ما يتجاوز خبرة الإنسان للطبيعة متوسلة باصطلاحات مستفادة من هذه الخبرة ذاتها.

ما زالت تحليلات رودولف أوتو تحتفظ بقيمتها على الرغم من انقضاء أربعين سنة عليها، وما زال القارئ يجد فائدة في قراءتها وتأملها. لكننا، فيما يلي من صفحات، سوف نضع أنفسنا في منظور آخر. بودّنا لو نعرض ظاهرة القدسي بكل ما فيها من تعقيد، فلا تقتصر على المنظور غير العقلي، لأن ما يهمنا في الدين ليس العلاقة بين

العناصر غير العقلية والعناصر العقلية، بل القدسي في كليته. فأول تعريف يمكننا اعطاؤه للقدسي انه يُضادُ الدنيوي، وان تجلية هذا التضاد وتحديدده هو ما يرمي إليه هذا الكتيب.

## عندما يتجلى القدسي :

انما يعلم الإنسان بالقدسي لانه يتجلى، يُظهر نفسه شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن الدنيوي. ولكي نترجم فعل هذا التجلي الآتي من قبل القدسي اقترحنا اصطلاح hierophanie (الظهور المقدس)، وهو اصطلاح ملائم، فيما نرى، خصوصاً وأنه لا ينطوي على معنى إضافي، اذ لا يعبر إلا عن مضمونه الاتيمولوجي (جذره اللغوي)، اي يعبر عن شيء مقدس يتجلى لنا. يمكننا القول ان تاريخ الأديان، من أكثرها بدائية الى أكثرها ارتقاء، عبارة عن تراكم من الظهورات الإلهية، من تجليات الحقائق القدسية، ليس ثمة انقطاع لاستمرارية الظهورات الإلهية بدءاً من أكثرها ابتدائية كتجلي القدسي في شيء ما، حجر او شجر، وانتهاء بالتجلي الأعلى الذي يتمثل لدى المسيحي في تجلي الله في يسوع المسيح، فهو دائماً نفس الفعل الخفي: تجلي شيء «مختلف تماماً»، اي حقيقة لا تنتسب الى عالمنا، في اشياء تشكل جزءاً لا يتجزأ من عالمنا «الطبيعي»، «الدنيوي».

يعاني الغرب الحديث من قلق تجاه اشكال معينة من تجلي المقدس: يصعب على بعض الناس ان يقبل تجلي المقدس في

الحجر او في الشجر، مع ان الأمر، كما سنرى بعد قليل، لا يتعلق بتقديس الحجرة او الشجرة بحد ذاتها. الحجرة والشجرة المقدستان لا تُعبدان بما هما كذلك، بل لأنهما ظهورات إلهية، فهما «تُظهَران» شيئاً لم يعد حجراً ولا شجراً، بل شيئاً مختلفاً كلياً.

لن نلحّ أبداً على التناقض الذي يكونه كل تجلٍ او ظهور، بما في ذلك اكثر التجليات ابتدائية. الشيء اذ يجليّ القدسي يصبح شيئاً آخر، من دون ان ينقطع عن كونه هو نفسه، لأنه يظل يشترك مع وَسَطه الكوني الذي يحيط به. فالحجرة تظل حجرة؛ لا شيء يميزها ظاهرياً (او بتعبير أدق: من وجهة نظر دنيوية) من جميع الأحجار الأخرى. اما الذين يرون ما تنكشف عنه الحجرة من قدسية، فإن حقيقتها المباشرة تتحول الى حقيقة من فوق الطبيعة. بعبارة أخرى، بالنسبة لمن لديهم خبرة دينية، «الطبيعة» كلها قابلة لأن تتجلى بوصفها قدسية كونية.

عند إنسان المجتمعات القديمة ميل الى العيش ابعداً ما يمكن في القدسي أو في صميم الأشياء المقدسة. ان هذا الميل امر مفهوم: بالنسبة للإنسان البدائي، كما بالنسبة لإنسان كل المجتمعات قبل الحديثة، القدسي يساوي القدرة، وفي النهاية، يساوي الحقيقة بامتياز. فالقدسي مشبع بالكائن. والقدرة المقدسة تعني في نفس الوقت الحقيقة والديمومة والفعالية. وترجم التضاد بين القدسي والدنيوي غالباً بالتضاد بين الحقيقي وغير الحقيقي او الزائف. على اننا يجب الا ننتظر ان نجد في اللغات القديمة هذه الاصطلاحات الفلسفية، كالحقيقي وغير الحقيقي الخ. ؛ لكن ان كان الاصطلاح لا وجود له، فإن الشيء الذي يدل عليه موجود: لذلك كان من الطبيعي



ان يتوق الانسان الديني توقاً عميقاً الى الكينونة، ويشارك في الحقيقة، ويتشبع بالقدرة.

كيف يجهد الإنسان الديني ان يحتفظ بنفسه اطول مدة ممكنة في عالم قدسي؛ كيف تبدى خبرته الكلية للحياة بالنسبة الى خبرة إنسان محروم من الشعور الديني، يعيش او يريد ان يعيش في عالم مجرد من القدسية - ان هذا هو الموضوع الرئيسي الذي سوف نتناوله في الصفحات التالية. لنقل من فورنا ان العالم الدنيوي في مجمله، الكون المجرد من القدسية كلياً، هو اكتشاف جديد اكتشفه العقل البشري. ليس علينا ان نبين بموجب اي سياق تاريخي، او نتيجة اي تعديل طرأ على المسلك الروحي، قام الإنسان الحديث بنزع صفة القدسية عن العالم واتخذ لنفسه وجوداً دنيوياً. حسبنا ان نبين هنا ان نزع صفة القدسية عن العالم هو الذي يميز الخبرة الكلية للإنسان غير الديني الذي يعيش في المجتمعات الحديثة، وان هذا الإنسان، بالتالي، يشعر بصعوبة ما تني تتفاقم كلما اراد ان يستعيد الأبعاد الوجودية للإنسان الديني الذي يعيش في المجتمعات القديمة.

## نمطان من الوجود في العالم :

سوف نقيس الفجوة التي تفصل بين نمطين من الخبرة، القدسية والدنيوية، فيما نقرأ التطورات التي طرأت على المكان القدسي والتشييد الطبقي للمسكن البشري، على تنوعات الخبرة الدينية للزمان، وعلاقات الانسان الديني بالطبيعة وعالم الأدوات او الوسائل،

وتقدّيس حياة الإنسان نفسها والقدسية التي قد يحملها وظائفه الحيوية (غذاء، جنس، عمل، الخ). حَسْبُنَا ان نذكر ان المدينة او البيت، والطبيعة، والأدوات او العمل يحد ذاته - كل ذلك قد أصبح بالنسبة للإنسان الحديث وغير الديني من اجل إقامة الحياة، وهذا ما يميزه من إنسان المجتمعات القديمة او حتى من فلاح في اوروبا المسيحية الفعل الفيزيولوجي (كالغذاء والجنس، الخ). في نظر الإنسان الحديث، ليس اكثر من سياق عضوي، مهما كان عدد المحرمات التي ما برحت تقيده (قواعد حسن الجلوس الى المائدة، الحدود التي تفرضها العادات المعترف بها على السلوك الجنسي). لكن بالنسبة للبدائي، مثل هذا الفعل ليس ابداً مجرد فعل فيزيولوجي؛ إنه سرّ، او يمكن ان يصير سرّاً، وفعل مواحدة بالقدسي.

سوف يأخذ القارئ في اعتباره عما قليل ان القدسي والديوي يشكلان نمطين من الوجود في العالم، موقفين وجوديين اتخذهما الإنسان على امتداد تاريخه. هذان النمطان من الوجود في العالم لا يعنيان تاريخ الأديان او علم الاجتماع وَحَسْبُ، كذلك لا يشكلان موضوعاً لدراسات تاريخية واجتماعية واثولوجية وَحَسْبُ، وإنما يعنيان ايضاً الفيلسوف وكل باحث يريد ان يعرف ما في الوجود البشري من أبعاد ممكنة. وفي الدرجة الأخيرة، يتوقف هذان النمطان من الوجود، القدسي والديوي، على مختلف المواقع التي كسبها الإنسان في الكون.

لذلك لم يعمد مؤلف هذا الكتيب، وهو المؤرخ الديني، الى كتابته من منظور اختصاصه، لأن إنسان المجتمعات التقليدية، وإن

كان انساناً دينياً، الا أن مسلكه يندرج في مسلك الإنسان بعامه، وبالتالي فهو يعني الأنثروبولوجيا الفلسفية، والفينومولوجيا (الظاهراتية) وعلم النفس.

ولكي نبرز بصورة افضل الملاحظات النوعية على الوجود في عالم قابل لأن يصير عالماً مقدساً، عمدنا الى إيراد أمثلة تخيرناها من اديان كثيرة، ترجع الى عصور وثقافات مختلفة. إذ لا شيء يساوي المثال، فهو الحقيقة الملموسة. ولعل من العبث ان نتكلم على بنية المكان القدسي من دون ان نبين، بالإيضاحات الدقيقة، كيف بُني مثل هذا المكان، ولماذا اصبح مختلفاً نوعياً عن المكان الدنيوي الذي يحيط به. وقد أخذنا امثلتنا من بلاد ما بين النهرين والهند والصين، ومن اقوام الكوكيوتل واقوام «بدائية» أخرى. في المنظور التاريخي - الثقافي، رَصَفُ مثل هذه الوقائع الدينية، التي تجمعت لدى اقوام نائية عنا في الزمان والمكان، لا يخلو من مخاطرة. ذلك ان الكاتب يكون دائماً معرضاً للوقوع في اخطاء القرن التاسع عشر، وخصوصاً الاعتقاد مع تايلور او فريزر بأن العقل البشري يتخذ رجعاً موحّداً على الظاهرات الطبيعية؛ مع ان التقدم الذي احرزه علم الانثولوجيا الثقافية وتاريخ الأديان قد بين لنا ان الحال لم تكن هكذا دائماً، وأن الرجوعات التي يتخذها الإنسان من الطبيعة محكومة اكثر من مرة بالثقافة، والتاريخ بالتالي.

غير أن ما يعنينا هنا هو أن نُظهر ما تنطوي عليه الخبرة الدينية من سمات نوعية اكثر من إظهار ما فيها من اختلافات وفروقات كثيرة مشروطة بالتاريخ. وإن الأمر ليشبه تقريباً ما لو عمدنا، لكي نفهم

الظاهرة الشعرية بصورة افضل ، الى اكثر الأمثلة تبانياً، كأن نورد الى جانب اشعار هوميروس أو فيرجيل أو دانتي قصائد هندوكية أو صينية ؛ اي ان نستدعي من الأشعار تلك التي تنطوي فيما بينها على تضامن تاريخي (هوميروس ، فيرجيل ، دانتي) ، كما نستدعي اعمال الإبداع التي تتعلق بجماليات أخرى . غير ان مثل هذا الرصف ، في حدود التاريخ الأدبي ، لا يخلو من محذور ، لكنه مع ذلك يصلح اذا وضعنا نصب اعيننا وصف الظاهرة الشعرية بما هي كذلك ، اي حين نريد تبيان الفرق الأساسي بين اللغة الشعرية واللغة النفعية اليومية .

## القدسي والتاريخ :

قصدينا في المقام الأول ان نبين ما في الخبرة الدينية من ابعاد نوعية وما تفتقر فيه عن اختبار العالم خبرة ذنوبية . ولذلك لن نتوسع في بحث ما لا حصر له من القيود التي خضعت لها خبرة العالم دينياً على مرّ العصور . كذلك نرى من الواضح ان الرمزيات وعبادة الأرض - الأم ، والخصوبة البشرية والزراعية ، و قدسية « المرأة » الخ . ؛ كل هذه ما كانت لتتطور وتكوّن نظاماً دينياً متميزاً لولا اكتشاف الزراعة .

كذلك من الواضح ان مجتمعاً مما قبل الزراعة ، اختصّ بالقنص ، لا يمكنه ان يستشعر قدسية الأرض - الأم بنفس الطريقة ولا بنفس الشدة . إن الفرق في الخبرة ينتج عن فروق في الاقتصاد والثقافة والتنظيم الاجتماعي - بكلمة واحدة ، عن التاريخ . ومع ذلك نجد بين الصيادين الرحّل والفلاحين المقيمين وجوه شبه في السلوك هي في

نظرنا اهم من الفروقات بما لا يُقاس . فالأولون كالأخيرين يعيشون في «كُون» مقدس، يشتركون في قدسية كونية تتجلى في عالم الحيوان كما تتجلى في عالم النبات . وما هو إلا أن نقارن اوضاعهم الوجودية بأوضاع إنسان المجتمعات الحديثة، الذي يعيش في كون مجرد من القدسية حتى ندرك الفرق بين هذا الأخير وإنسان المجتمعات القديمة . بنفس الطريقة نستطيع أن ندرك الأساس الذي تنهض عليه المقارنات بين الوقائع الدينية التي ترجع إلى مختلف الثقافات : جميع هذه الوقائع تتكشف عن نفس المسلك، هو مسلك الإنسان الديني . يمكن هذا الكتيب أن يكون مدخلاً عاماً إلى تاريخ الأديان من حيث إنه يصف انماط القدسي والوضع البشري في عالم محمل بقيم دينية . غير أنه لا يشكل تاريخاً للأديان بالمعنى الدقيق للكلمة، لأن المؤلف إذ يورد الأمثلة على الوقائع الدينية لم يكلف نفسه عناء الإشارة إلى موقعها من سياقاتها التاريخية - الثقافية . ولو أنه أراد أن يفعل ذلك، لاقتضاه مجلدات كثيرة . ولسوف يجد القارئ جميع المعلومات الضرورية في الأعمال التي بيّناها في ثبث المراجع .

سان - كلود  
نيسان (ابريل) ١٩٥٦ .



## الفصل الأول

---

المكان المقدس  
وتقديس العالم





## التجانس المكاني والتجلي الإلهي :

عند الإنسان الديني ، المكان ليس متجانساً ، فيه انقطاعات وفجوات : فيه اجزاء تختلف اختلافاً نوعياً عن الأجزاء الأخرى . يقول الرب لموسى : « لا تقترب الى ههنا . اخلع حذاءك من رجلك . لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة » (خروج ٣ : ٥) .

اذن ، ثمة امكنة قدسية ، وبالتالي «قوية» ، هامة . وامكنة أخرى لا تنصف بالقدسية ، وبالتالي لا بنية لها ولا تماسك - بكلمة واحدة ، عديمة الشكل . ثم ، عند الإنسان الديني ، يترجم هذا اللا تجانس المكاني اختباراً للتضاد بين المكان القدسي ، الذي هو وحده الحقيقي ، الموجود حقاً ، وبين سائر الامكنة الأخرى التي تشكل الامتداد غير المتشكل الذي يحيط به .

ان خبرة اللا تجانس المكاني دينياً تكون خبرة بدئية مماثلة لـ «تأسيس العالم» . ان الامر لا يتعلق هنا بتأمل نظري ، بل بخبرة

دينية، اولية، سابقة لكل تدبر او تفكر في العالم. ان ما يتيح تكوين العالم هو الانقطاع الحاصل في المكان؛ فهو الذي يكشف عن «النقطة الثابتة»، المحور المركزي لكل توجه مستقبلي. عندما يتبدى القدسي في نوع من التجلي الإلهي، لا يكون ثمة انقطاع في تجانسية المكان وحسب، وإنما انكشاف حقيقة مطلقة ايضاً، تقف على النقيض من لا حقيقة المدى الرحب الذي يحيط بها. ان تجلي القدسي يؤسس العالم انطولوجياً. في المدى المتجانس غير المنتهي، حيث يتعذر وجود نقطة استدلال، ويتعذر ان يحدث فيه اي توجه، يكشف التجلي الإلهي عن «نقطة ثابتة»، عن «مركز».

سنرى إذن مقدار ما لاكتشاف المكان المقدس، او لظهوره، من قيمة وجودية عند الإنسان الديني: لا يمكن ابتداء شيء او صنعه بدون توجه أولي يسبق ابتداءه او يسبق صنعه، وكل توجه انما ينطوي على اكتساب نقطة ثابتة. لذلك يجهد الإنسان الديني لكي يقيم نفسه في «مركز العالم». ولكي يعيش في العالم، يجب عليه أن «يؤمسه»، وما من عالم يمكن أن يولد في «عماء» التجانس ونسبية المكان الدنيوي. ان اكتشاف او تعيين «نقطة ثابتة»، اي «مركز»، لهو فعل يضارع «خلق العالم». والأمثلة التي نوردّها بعد قليل - وهي امثلة ولا أجلى منها - تبين لنا ما للتوجه الطقسي في تشييد المكان المقدس من قيمة كوسموغونية (ولادة العالم).

في المقابل، المكان في الخبرة الدنيوية متجانس ومحايّد: لا انكسار يفرقه نوعياً عن مختلف اجزاء كتلته. فالمكان الهندسي قابل لان يتجزأ ويتحدد من اي جهة كانت، لكنه لا يُعطي تمييزاً نوعياً ولا

توجهاً انطلاقاً من بنيتها الخاصة. بالبداية، يجب ألا نخلط «مفهوم» المكان الهندسي المتجانس المحايد بـ «خبرة» المكان «الدنيوي»، التي تقف على نقيض خبرة المكان المقدس، وهي وحدها الخبرة التي تهتمنا في هذا البحث. إن «مفهوم» المكان المتجانس وتاريخه (وقد تم اكتسابه لأغراض الفكر الفلسفي والعلمي منذ القديم) يشكل مسألة أخرى مختلفة كلياً ليس هنا مجالها. إن ما يهمنا هو «اختبار» المكان على النحو الذي يعيشه الإنسان غير الديني، وهو الإنسان الذي يرفض قدسية العالم، ويعتبر الوجود وجوداً «دنيوياً» فقط، وجوداً خالصاً من كل سوابق الافتراض الدينية.

لكن لا بد لنا من القول أن مثل هذا الوجود الدنيوي لا نلقاه ابداً في حالته النقية. لأنه مهما بلغت درجة نزع القدسية عن العالم، لم يفلح الإنسان الذي شاء أن يحيا حياة دنيوية في القضاء على المسلك الديني.

ولسوف نرى أن نفس الوجود الذي تجرد من القدسية ما زال يحتفظ أكثر من غيره بآثار من أضفاء قيم دينية على العالم. حالياً، نضرب صفحاً عن هذا الجانب من المشكلة، ونقتصر على المقارنة بين الخبرتين موضوع بحثنا: خبرة المكان القدسي وخبرة المكان الدنيوي. ونذكر بما تنطوي عليه الخبرة الأولى: الكشف عن مكان مقدس يسمح لنا بالحصول على «نقطة ثابتة»، وأن نتوجه في التجانسية العمائية، وأن «نؤسس العالم»، وأن نعيش حياة حقيقية. في المقابل، تتمسك الخبرة الدنيوية بتجانسية المكان، وينسبته بالتالي. وبذلك يتلاشى كل وجود «حقيقي» لأن «النقطة الثابتة» لا تعود تمنع بحالة انطولوجية وحيدة: تظهر وتختفي على حسب

الضرورات اليومية. والحق يقال، لا يعود يوجد «عالم»، بل مجرد أجزاء من عالم متكسر، كتلة غير متشكلة من لا نهائية «الأمكنة» في شيء من المحايدة يتحرك فيها الإنسان، منساقاً بالتزامات يفرضها كل وجود مندمج في مجتمع صناعي.

ومع ذلك، حتى في هذه الخبرة الدنيوية للمكان تظل تتدخل قيم تذكرونا، على هذا النحو أو ذاك، باللاتجانسية التي تميز الخبرة المكانية الدينية. فهناك أمكنة تظل تتمتع بامتياز من حيث أنها تختلف نوعياً عن الأمكنة الأخرى: لوحة طبيعية تصور مسقط رأس إنسان، مطارح الحب الأول، شارع أو زاوية في أول مدينة اجنبية زارها إنسان في عهود الصبا. جميع هذه الأمكنة تحتفظ، حتى بالنسبة للإنسان غير الديني الغالي في تحرره، بنوعية استثنائية، وحيدة. تلکم هي «الأمكن المقدسة» في «عالمه» أو في «كونه» الخاص، كما لو أن هذا الإنسان غير الديني قد لقي الهاماً أو وحيًا من واقع «آخر» هو غير الواقع الذي يساهم فيه بوجوده اليومي.

يجب ألا ننسى هذا المثل من المسلك «الديني - الخفي» الذي يسلكه الإنسان الدنيوي. ولسوف تتاح لنا الفرصة للاستشهاد بأمثلة توضيحية أخرى من هذا النوع من التدني وتجريد القيم والسلوك الديني من القدسية، ونأخذ بالحسبان فيما بعد ما لها من مغزى عميق.

## التجلي الإلهي وآياته :

لكي نوضح فقدان التجانس المكاني الذي يعيشه الإنسان

الديني، نورد هذا المثال العادي: كنيسة في مدينة حديثة. بالنسبة للمؤمن، تشترك هذه الكنيسة في مكان آخر غير الشارع الذي توجد فيه. فالباب الذي يفضي إلى داخل الكنيسة يشكل حلاً للاستمرارية. والوصيد (العتبة) الذي يفصل بين المكانين إنما يشير في الوقت نفسه إلى المسافة بين النمطين من الوجود، الديني والدنيوي. والوصيد هو، في آن واحد، الحد الذي يميز العالمين ويُضادُ بينهما، والمكان المتناقض الذي يتصل فيه هذان العالمان، حيث يمكن فيه العبور من العالم الدنيوي إلى العالم القدسي.

مثل هذه الوظيفة الطقسية انتقلت إلى وصيد المساكن التي يقطعنها الناس، وهذا هو السبب الذي يجعل الوصيد يتمتع بمثل هذا الاعتبار. ويرافق اجتياز الوصيد الأهلي كثير من الطقوس، كأن تبذل له مظاهر الاحترام أو يسجد له أو يلمس باليد في خشوع، الخ وللوصيد «حرأسه» من الآلهة أو الأرواح تحمي مدخله من عدوان الناس كما تصد عنه القوى الشيطانية والوبائية. وعلى الوصيد تقرب القرابين للآلهيات الحارسة. كذلك كانت بعض ثقافات الشرق القديم تقيم الدينونة على الوصيد، مثلما كان الحال في مصر وبابل. فالوصيد والباب كلاهما إنما «يُظهرا» على نحو مباشر حسي الانقطاع في استمرارية المكان. ومن هنا أهميتهما الدينية الكبرى، لأنهما كليهما يرمزان إلى العبور وهما في الوقت نفسه الوسيطان إليه.

من هذا ندرك لماذا تشترك الكنيسة في كل مكان إلا الأبنية البشرية التي تحيط بها. في داخل السياج المقدس يتم اجتياز العالم الدنيوي. وإنما لنجد في المستويات الثقافية البالغة القدم أن إمكانية

الاجتياز هذه تعبر عن نفسها بواسطة «المنافذ» او «الكوى». عن طريق المنافذ الموجودة في الحرم المقدس، يصبح الاتصال بالآلهة أمراً ممكناً، تبعاً لذلك، (يجب ان يوجد ثمة «باب» يفضي إلى الأعلى، منه ينزل الآلهة إلى الأرض، ومنه يستطيع الإنسان أن يصعد رمزياً إلى السماء. ولسوف نرى بعد قليل ان الحال كانت على هذا النحو في ديانات كثيرة: يشكل المعبد، بالتحديد، «منفذاً» يفضي إلى الأعلى ويؤمن الاتصال مع الآلهة.

كل مكان مقدس ينطوي على تجلٍ مقدس، عن تغجر للقدسي ينتج عنه انفصال اقليم عن محيطه الكوني فيجعله مختلفاً عنه نوعياً. عندما رأى يعقوب في المنام، وهو في حاران، السلم الذي يؤدي إلى السماء، يصعد عليه الملائكة وينزلون، وسمع الرب في القمة يقول: «أنا الرب إله إبراهيم!»، استيقظ وقد امتلأ قلبه رعباً، فصاح: «ما أرهب هذا المكان! ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء!». ويذكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصبّ زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل» (التكوين ٢٨: ١٢-١٩). ان الرمزية التي تضمنها تعبير «باب السماء» غنية ومعقدة: الظهور الإلهي يقدس مكاناً بمجرد جعله «مفتوحاً» إلى الأعلى، نقطة مفارقة يتم الانتقال منها من نمط وجود إلى نمط آخر. وسوف نلتقي بعد قليل امثلة أكثر تحديداً: مقدس هي «ابواب للآلهة»، او اماكن للعبور بين السماء والأرض، لكي يتقدس مكان، لا يحتاج الأمر في اغلب الأحوال إلى تجلٍ إلهي او ظهور قدسي بالمعنى الدقيق للكلمة: تكفي آية او علامة من أي نوع حتى تدل على قدسيته:

«تروي الأسطورة ان المرباط الذي أقام الحَمَل EL - HEMMEL في نهاية القرن السادس عشر توقف عند ساقية لقضاء الليل بالقرب منها، وغرس عصاه في الأرض. وفي صباح الغد، عندما همَّ ان يأخذها وجدها قد ضربت لها جذراً في الأرض ونبت لها براعم. فرأى في ذلك دليلاً على إرادة الله وأقام له مسكناً في هذا المكان<sup>(١)</sup>. هذا مثال على آية او علامة محمّلة بمغزى ديني، وهي تُدخل عنصراً مطلقاً يُنهي النسبة والاختلاط، «شيء ما» لا ينتسب إلى هذا العالم تجلّي على نحو يقيني. وهو، إذ يفعل هذا، فإنما يرسم توجيهاً او يقرر سلوكاً.

وعندما لا تظهر آية في الأمكنة المجاورة، يُصار إلى «تحريرها». فتكون ممارسة لنوع من «التعزيم» مع الاستعانة بالحيوان، فهو الذي يكشف عن المكان القابل للتقديس. والأمر، على الجملة، يتعلق باستحضار قوى مقدسة، بغرض «التوجه» في التجانسية المكانية. وانما يجري طلب الآية او العلامة لكي يضع حداً للتوتر الذي تستثيره النسبة، وللقلق الذي يغذيه فقدان التوجه - باختصار، لإيجاد «نقطة استناد» مطلقة. مثال ذلك: يُطارِد حيوان أصهب، وفي المكان الذي يقع او يقبض عليه فيه، يُقام المقدس. أو يُرسل حيوان أهلي طليقاً - ثور، مثلاً -، ثم يجري البحث عنه بعد بضعة أيام، ويصار إلى التوضيح به حيث يعثر عليه. ثم يقام المذبح وتشيّد القرية حوله. في جميع هذه الحالات، يكون الحيوان هو الذي

(1) RENÉ BASSET, Revue des Traditions rurales, XXII, 1907, p. 287.

يكشف عن قدسية المكان: فالناس ليسوا احراراً في اختيار الموقع المقدس؛ ليس عليهم سوى البحث عنه واكتشافه مستعينين بالإشارات الخفية.

تُظهر لنا الأمثلة المتقدمة مختلف الوسائل التي يتلقَى بها الإنسان الديني إلهامه عن المكان المقدس. في كل هذه الحالات، تلغي التجليات المقدسة تجانسية المكان وتوحي به «نقطة ثابتة». لكن بما ان الإنسان الديني لا يستطيع العيش الا في جو مشبع بالقدسية، يجب ان نتوقع منه اعتماد عدد كبير من التقانيات يقدس المكان بواسطتها. لقد رأينا ان القدسي هو الحقيقي او الواقعي بامتياز، وهو في الوقت نفسه القدرة والفعالية وينبعاً للحياة والخصوبة. ان توق الإنسان الديني الى العيش «في القدسي» يضاهي في الحقيقة توقه الى اقامة نفسه في الواقع الموضوعي، وألا يدع نفسه مشلولاً في نسبية ما لا نهاية له من الاختبارات الذاتية صِرفاً، بل ان يعيش في عالم واقعي فعال، لا في وهم. ان هذا المسلك يتحقق على جميع اصعدة وجوده، لكنه يتضح خصوصاً في توق الإنسان الديني الى الحركة في عالم مقدس، اي في مكان مقدس. ولهذا السبب اصطنع تقانيات للتوجه، او هي بدقيق العبارة تقانيات «بناء» المكان المقدس. لكن يجب الا يذهب الظن ان الأمر له علاقة بعمل بشري، وأن الإنسان بفضل جهده افلح في تقديس المكان. في الحقيقة، يكون الطقس الذي يشيد بواسطته مكاناً مقدساً طقساً فعلاً بمقدار ما يكرر فعل الآلهة. لكن، لكي نفهم ضرورة تشييد المكان المقدس طقسياً فهماً افضل، يجب ان نشدّ قليلاً على المفهوم التقليدي للعالم:



يجب أن نأخذ في اعتبارنا ان كل «عالم» هو، في نظر الإنسان الديني، «عالم مقدس».

## العماء Chaos والكون Cosmos :

ان ما يميز المجتمعات التقليدية هو التضاد المستتر بين الإقليم المسكون والمكان المجهول، غير المحدد، الذي يحيط به. الأول هو «العالم» (أكثر تحديداً، «عالمنا»)، وهو «الكون»؛ وما سواه ليس بـ«الكون»، بل نوع من «عالم آخر»، مكان غريب، عمائي، تسكنه الأشباح والعماريات والأغراب (الذين يتمثلون في العماريات والأشباح، من جانب آخر). لأول وهلة، قد نُرجع هذا الانقطاع المكاني الى التضاد بين الإقليم المأهول المنظم، وبالتالي «المكوّن»، وبين المكان المجهول الذي يمتد الى ما وراء حدوده. فمن جهة هناك «كوّن» Cosmos، ومن جهة ثانية «عماء» Chaos. لكننا سنرى ان الإقليم المأهول ان كان «كوّناً»، فما ذاك الا لانه تقدّس قبل ان يكون كذلك، لانه من عمل الآلهة او له صلة بعالمهم، على هذا النحو او ذاك. فالعالم (او «عالمنا») هو عالم سبق وأن تجلّى القدسي في داخله، وبالتالي أصبح فيه انقطاع المستويات ممكناً وقابلاً للتكرار.

يظهر كل هذا في وضوح شديد في الطقوس الفيدي Védique المتعلقة بالاستيلاء على اقليم. فالاستيلاء يصبح مشروعاً بإقامة مذبح للنار على اسم الإله أغني. «يقال ان الإنسان استوطن (في مكان) بعد ان يكون بنى مذبحاً للنار (غرهاباتيا)، وجميع الذين بنوا مذبحاً للنار

استوطنوا بصورة مشروعة» (سانا باتا براهيمانا: ١، ١، ١). بإقامة مذبح للنار، يصبح آغني حاضراً، ويصبح الاتصال بعالم الآلهة مضموناً.

لكن مغزى هذا الطقس اعقد من ذلك بكثير، وإذا اخذنا جميع تفصيلاته بعين الاعتبار، نفهم لماذا يكون تطويب\* إقليم مساويا لـ «تكوينه» Cosmisation او «خلقه» إقامة مذبح للنار على اسم الإله آغني ما هي إلا تكرار للخلق على مستوى العالم الأصغر. إذ الماء الذي يجبل به الصلصال يمثل الماء البدئي، والصلصال الذي يشكل قاعدة المذبح يرمز الى الأرض، وأما جوانبه الداخلية فتمثل الجو (او الهواء)، الخ. وتكون عملية البناء مصحوبة بمقاطع من الشعر تعلن الإقليم الكوني الذي تم خلقه اعلاناً صريحاً (سانا باتا براهيمانا ١، ٩، ٢، ٢٩، الخ). باختصار، ان اقامة مذبح للنار، الذي هو وحده يمنح فعل الاستيلاء على إقليم صفة المشروعية، تساوي فعل ولادة الكون . Cosmogonie

ان الإقليم المجهول الغريب غير المأهول (وهذا معناه في الغالب: غير مأهول من الذين «لنا») يسهم ايضاً في النمطية المائعة والشبحية التي يتصف بها العماء. والإنسان اذ يحتل هذا الإقليم ويقيم فيه فإنما يحوله رمزياً الى «كون» Cosmos بتكراره طقس ولادة الكون. ان ما يجب ان يصبح «عالمنا»، يجب ان يكون «مخلوقاً» أولاً، ولكل خلق نموذججه المثالي: خلق الآلهة للعالم. لم يكن المعمرون

\* من الـ «طوبى»، كما في قوله تعالى «طوبى لهم وحسن مآب» (الرعد: ٢٩)، بتوجيه المعنى الى التبريك. - المترجم -

الإسكانديناف، بعد ان تم لهم الاستيلاء على إيسلاندا وقاموا باستصلاح اراضيها، يعتبرون مشروعهم عملاً أصيلاً ولا عملاً قام به الإنسان او عملاً من الأعمال الدنيوية، بل تكراراً لفعل بذي : تحويل العماء إلى «كون» بفعل الخلق الإلهي . فهم اذ اشتغلوا على الأراضي المهجورة فإنما كانوا لا يفعلون شيئاً غير تكرار فعل الآلهة الذين نظموا العماء بإعطائه المباني والأشكال والضوابط .

ان يتعلق الأمر باستصلاح ارض بور، او غزو اقليم واحتلاله، كان مسكوناً من اناس «آخرين»، فإن الاستيلاء عليه يجب ان يكرر فعل ولادة الكون من كل وجه . في منظور المجتمعات القديمة، كل ما هو غير «عالمنا» فهو ليس بـ«عالم» بعد . ان الإقليم لا يكون ملكاً لأحد الا ان «يخلق» خلقاً جديداً، اي ان يُطوَّب . ولقد ظل هذا المسلك الديني حيال الأراضي المجهولة معمولاً به مدة طويلة، وفي الغرب بالذات، حتى فجر الأزمنة الحديثة . فقد كان الغزاة الإسبان والبرتغال (الكونكستادور) يستولون باسم يسوع المسيح ، على الأقاليم التي يكتشفونها ويغزونها . وكان نصب الصليب، تطويلاً للبلاد المفتوحة، يساوي «ولادة جديدة» :

في المسيح «الأشياء المتينة قد مضت؛ هوذا الكل قد صار جديداً» (٢ كورنثوس ٥ : ١٧) . فالبلاد التي تم اكتشافها حديثاً قد «تجدد خلقها» بفضل الصليب .

### تطويب المكان : تكرار لولادة الكون :

من المهم ان نفهم جيداً ان «تكوين» Cosmisation الأقاليم

المجهولة هو دائماً فعل تطويب: اننا اذ ننظّم مكاناً فإنما نكرر العمل المثالي الذي قامت به الآلهة. هذه العلاقة الوثيقة بين فعل التكوين وفعل التطويب نشهدهما في مستويات الثقافة الابتدائية؛ على سبيل المثال عند الأستراليين الرّحل الذين ما يرح اقتصادهم عند مرحلة جمع الغذاء والصيد الصغير. بحسب تقاليد احدى قبائل الأرُنطاء، وهم الأشلبا، قام الكائن الإلهي، نومباكولا، بـ«تكوين» ما سوف يصبح اقليمهم، وكان ذلك في الأزمنة المييطيقية (الأسطورية)، وخلق لهم جدّهم الذي ينحدرون منه، وأنشأ لهم مؤسساتهم. وجعل لهم من جذع شجرة السنط\* العمود المقدس، وبعد ان طلاه بالدم، صعد الى السماء وتوارى عن الأنظار. ان هذا العمود يمثل محوراً كونياً، ذلك لأن الإقليم الذي حوله يصبح صالحاً للسكن، ويصير الإقليم «عالمًا». من هنا الدور الطقسي الكبير الذي يلعبه العمود المقدس: فالأشلبا ينقلونه معهم كلما ارتحلوا وعين لهم مَيْلُهُ الجهة التي ينبغي لهم ان يتوجهوا فيها؛ وهذا يتيح لهم التنقل على الدوام من غير ان ينفصلوا عن «عالمهم»، ويظلون في الوقت نفسه على اتصال بـ«السماء» التي احتجب فيها نومباكولا. اذا انكسر العمود، فمعنى ذلك الكارثة، نوع من «نهاية العالم»، او انكفاء في «العماء». يحكي سبنسر وغيلين، رواية عن احدى الأساطير، ان العمود المقدس انكسر ذات مرة، فأصبحت القبيلة كلها فريسة للقلق والكرب؛ تشرذ افرادها حيناً من الوقت، ثم اقتعدوا الأرض وأسلموا أنفسهم للموت<sup>(1)</sup>.

● نوع من الشجر يستخرج منه صمغ جيد.

(1) B. SPENCER et F.J. GILLEN, THE ARNUTA (Londres, 1926) 1, p. 388.

يوضح لنا هذا المثال على نحو يثير عجبنا ما للعمود الطقسي من وظيفة كوسمولوجية ودور سوترولوجي في آن واحد: يقوم الـ«كُورَا» - أووَا» (ولعله كبير الكهنة - المترجم -) بصنع العمود من جديد لكي يستعمله النوميابكولا في «تكوين» العالم من جهة، ومن جهة أخرى ترى قبيلة الأشلبا أنها بفضلها تستطيع الاتصال بالسماء، من حيث أن الوجود البشري غير ممكن إلا بفضل هذا الاتصال الدائم مع السماء. ان «عالم» الأشلبا لا يصير عالماً «لهم» بحق إلا بمقدار ما يقوم النوميابكولا بإعادة خلق الكون على نحو منظم ومقدس. الحياة غير ممكنة بدون «نافذة» نحو المتعالي؛ بعبارة أخرى، الحياة غير ممكنة في «العماء». وما ان يفقد الوجود في العالم صلته بالمتعالي حتى يصبح وجوداً غير ممكن، وحتى يُسلم الأشلبا انفسهم للموت.

الإقامة في مكان تعني، في الدرجة الأخيرة، تطويه. وعندما لا تعود الإقامة مؤقتة، كما هو الحال عند القبائل الرُحَل، بل دائمة، كما هو الحال عند المقيمين، تكون منطوية على قرار حيوي يربط وجود المجتمع بأسره. ان «الإقامة» في مكان وتنظيمه والسكن فيه وكثيراً من مثل هذه الأفعال انما تفترض اختياراً وجودياً: اختيار العالم الذي نحن على استعداد لامتلاكه فيما نحن «نخلقه». فهذا «الكون» هو دائماً نسخة عن العالم المثالي الذي خلقته وسكنته الآلهة. ولذلك يسهم في قداسة عمل الآلهة.

يعتقد الأشلبا ان العمود المقدس «يدعم» العالم الذي «لهم» ويسر لهم الاتصال بالسماء. نحن هنا بإزاء نموذج أولي لصورة كونية شهدت انتشاراً واسعاً، هي صورة الأعمدة الكونية التي تدعم السماء

فيما هي تفتح الطريق نحو عالم الآلهة. ظل السلت والجرمان، حتى  
 بعد اعتناقهم للمسيحية، يحتفظون بعبادة مثل هذه الأعمدة  
 المقدسة. يروي كتاب Chronicum Laurissense Breve، الذي كان  
 تأليفه في حوالي ٨٠٠ للميلاد، ان شارلمان في حروبه مع السكسون  
 (٧٧٢)، لما فتح مدينة ارسبرغ، امر بهدم معبدها وإزالة الخشب  
 المقدس من «عمودهم الشهير». ويذكر رودولف دي فولدا (حوالي  
 ٨٦٠) ان هذا العمود الشهير هو «عمود الكون الذي يدعم كل شيء  
 تقريباً». واننا لنجد نفس الصورة الكوسمولوجية عند الرومان  
 (هوراس، قصائد، ٣، ٣)، وفي الهند القديمة مع الـ«سكامبها»،  
 العمود الكوني (ريك فيدا، ١، ١٠٥، ١٠، ٨٩، ٤، الخ)، لكننا  
 نجدها ايضاً عند سكان جزر الكناري وفي الثقافات البعيدة، كثقافة  
 الكواكيوتل (كولومبيا البريطانية) وثقافة «نذاء دي فلور» (اندونيسيا).  
 يعتقد الكواكيوتل ان عموداً من نحاس يخترق المستويات الكونية  
 الثلاثة (العالم الأسفل، الأرض، السماء): هناك حيث يفوص في  
 السماء، يوجد «باب العالم الأعلى». والصورة الموثقة لهذا العمود  
 الكوني هي، في السماء، المجرة (درب التبانة). لكن عمل الآلهة  
 هذا، الذي هو العالم، يعيد خلقه البشر ويحاكونه على مستواهم.  
 محور العالم الذي يُرى في السماء، على هيئة المجرة، يجعلونه ماثلاً  
 في بيت العبادة على هيئة عمود مقدس. ويتكون من جذع شجرة ارز  
 طوله ما بين عشرة امتار واثنى عشر متراً، يتغل أكثر من نصفه من سقف  
 المعبد. ويلعب دوراً رئيسياً في الاحتفالات بما يضيفه من صفة  
 المبنى الكوني على بيت العبادة. في الأناشيد الطقسية يُدعى البيت

«عالمنا»، والمرشحون لاستلام الأسرار، الذين يقطنون فيه، يعلنون: «انا في مركز العالم... انا بالقرب من عمود العالم»، الخ<sup>(1)</sup>، وانا لنجد تمثيل العمود الكوني في العمود المقدس، وتمثيل بيت العبادة في العالم، عند الـ«نذءا دي فلور» ايضاً. وعمود القربان يُدعى «عمود السماء»، ويُعتقد انه يدعم السماء<sup>(2)</sup>.

## «مركز العالم»

ان اعلان المريد من الكواكيوتل: «انا في مركز العالم» يكشف لنا رأساً عن واحد من اعمق المعاني التي ينطوي عليها المكان المقدس. هنا حيث يتم، عن طريق الظهور المقدس، تقاطع المستويات، وتنتفح في الوقت نفسه «كوة» من الأعلى (العالم السماوي) او من الأسفل (الأقاليم الدنيا، عالم الأموات)، تصبح المستويات الكونية الثلاثة (الأرض، السماء، الأقاليم الدنيا) متصلة بعضها ببعض. كما رأينا قبل قليل، فكرة الاتصال يُعبّر عنها احياناً بصورة عمود عالمي، او محور عالمي، يصل الأرض بالسماء ويدعمهما، ونجد قاعدته ضاربة في عمق العالم الأسفل («الجحيم»). لكن هذا العمود الكوني لا يمكنه ان يقوم الا في مركز العالم من حيث ان العالم المسكون برمته انما ينتشر حوله. نحن هنا

(1) WERNER MÜLLER, Weltbild und Kult der Kwakwaka'wakw - Ind. Iener (Wiesbaden, 1955), PP. 17 - 20

(2) P. Arndt, «Die Megallithen kultur des Nad'ia» :Anthrop 27, 1932, PP. 61 - 61.

بإزاء سلسلة من المفاهيم الدينية والصور الكوسمولوجية مترابطة فيما بينها يفصلها «نظام» يمكننا ان ندعوه بـ«نظام العالم» لدى المجتمعات التقليدية :

- ١ - ان المكان المقدس يشكل انقطاعاً في تجانسية الفراغ ؛
- ب - يُرمز الى هذا الانقطاع بـ«نافذة» او «كوة» ، يمكن بواسطتها العبور من اقليم الى آخر (من السماء إلى الارض وبالعكس ، او من الأرض إلى العالم الأسفل) ؛
- ج - يعبر عن الاتصال بالسماء ، من غير تحديد ، بجملة من الصور ترجع كلها إلى فكرة محور العالم Axis mundi ، كان تكون عموداً أو سلماً (كما هو سلّم يعقوب) او جبلاً او شجرة الخ . ؛
- ٢ ) حول هذا المحور الكوني يتشعب «العالم» («عالمنا» ، وبالتالي يكون موقع المحور «في الوسط» ، «في سرّة الأرض» ، لأنه مركز العالم .

ثمة عدد كبير من العقائد والأساطير والطقوس المختلفة استمدت مقوماتها من هذا النظام العالمي «التقليدي» ليس هنا مجال ذكرها . حسبنا إيراد بضعة أمثلة نتخيرها من مختلف الحضارات بحيث تتيح لنا فهم الدور الذي يلعبه المكان المقدس في حياة المجتمعات التقليدية ، بصرف النظر عن المظهر الخاص الذي قد يتخذه : مكان مقدس ، بيت عبادة ، مدينة ، «عالم» . هذا ، واننا لنجد رمزية مركز العالم في كل مكان . وليس كالمركز ما يوضح لنا ، في معظم الحالات ، المسلك التقليدي حيال «المكان الذي يعاش فيه» . لنبدأ بمثال يبين لنا رأساً ما تتصف به هذه الرمزية من تماسك



وتعقيد، وأعني بها رمزية «الجبل الكوني». رأينا ان الجبل يندرج في جملة الصور التي تعبر عن الصلة بين السماء والأرض. واننا لنجد كثيراً من الثقافات تحكي لنا عن جبال، اسطورية او واقعية، تقع في مركز العالم: جبل ميرو في الهند، وهرابتر زائتي في إيران، و«جبل البلاد» - وهو جبل اسطوري في بلاد الرافدين -، وجبل جريزيم في فلسطين، وكان يُسمى ايضاً «سُرّة الأرض». وبما أن الجبل المقدس هو محور العالم الذي يصل الأرض بالسماء، فهو يلامس السماء وتتعين فيه أعلى نقطة في العالم؛ ينتج عن ذلك ان البلاد التي تحيط به، وهي البلاد التي تشكل «عالمنا»، هي أعلى البلاد. وهذا ما يعلنه المأثور العبري: فلسطين، بما هي أعلى البلاد، لم يغمرها الطوفان. وينقل المأثور الإسلامي ان أعلى مكان على وجه الأرض هو الكعبة، لأن نجم القطب يدل على انها تقع امام مركز السماء. وعند المسيحيين، تقع الجلجثة في ذروة الجبل الكوني. كل هذه العقائد تعبر عن عاطفة واحدة، دينية بعمق: «عالمنا» ارض مقدسة لأنه اقرب مكان من السماء، ولأنه من هنا، من عندنا، يمكن الوصول إلى السماء. عالمنا اذن «مكان عال». في اللغة الكوسمولوجية، يُترجم هذا المفهوم بأنه «قُدْف» للإقليم الممتاز، وهو إقليمنا، الى ذروة الجبل الكوني. وقد جمعت الأفكار المتأخرة، تبعاً لذلك، كل انواع النتائج المتصورة؛ من ذلك مثلاً النتيجة التي مررنا بها لتونا، وأعني بها امتناع الأرض المقدسة على الطوفان.

نفس رمزية المركز تفسر لنا صوراً كوسمولوجية ومعتقدات دينية أخرى، نشير منها فيما يلي الى أهمها: آ - المدن المقدسة والحُرُم

توجد في مركز العالم ؛ ب - المعابد نسخ عن الجبل الكوني وتكون بالتالي «صلة الوصل» بامتياز بين الأرض والسماء ؛ ج - ان اساسات المعابد تغوص في اعماق الاقاليم الدنيا . حسبنا من ذلك بضعة أمثلة . ثم نسعى بعد ذلك الى ان نتمم جميع هذه المظاهر المختلفة التي تعود الى نفس الرمزية ؛ وعندئذ نرى مقدار ما هي عليه هذه المفاهيم الرمزية عن العالم من تماسك .

السلطان الصيني الكامل تقع عاصمته في مركز العالم : في ظهيرة يوم الاعتدال الصيفي ، لا يكون للمزولة ظل فيه . وما يلفتنا هو ان نلقى نفس الرمزية تطبق على هيكل اورشليم : الصخرة التي شُيِّد عليها هي «سُرَّة الأرض» .

الحاج الإسلامندي ، نيقولا دي ترفا ، الذي زار مدينة القدس في القرن الثاني عشر ، كتب عن القبر المقدس يقول : «هنا وَسَطُ العالم ؛ هنا ، في يوم الاعتدال الصيفي ، يسقط نور الشمس عمودياً من السماء» . ونفس المفهوم نجده في إيران : البلاد الإيرانية هي مركز العالم وقلبه . وكما يوجد القلب في وسط الجسد ، كذلك بلاد إيران هي أعلى من جميع البلاد الأخرى لأنها تقع في وسط العالم . ولذلك اشتهرت مدينة «شيز» ، اورشليم الإيرانيين (لأنها تقع في مركز العالم) ، بأنها المكان الأصلي للسلطة الملكية ، وفي الوقت نفسه هي مسقط رأس زرادشت .

اما تمثيل المعابد بالجبال الكونية ووظيفتها من حيث هي «صلة الوصل» بين الأرض والسماء ، فإن اسماء البروج والمقادس البابلية نفسها تشهد لذلك ؛ فهي تُدعى «جبل البيت» و«بيت جبل جميع

الأراضي» و«جبل العواصف» و«صلة الوصل ما بين السماء والأرض»، الخ. وكانت الزقورة، بالمعنى الدقيق للكلمة، جبلاً «كونياً». فالأدوار السبعة تمثل السموات السبع الكوكبية، والكاهن اذ يتسلق هذه الأدوار فإنما يصل الى ذروة العالم. وتفسر لنا رمزية مشابهة ضخامة بناء معبد «برأبودور» في جاوا، الذي بني على هيئة جبل صُنعي. ويساوي الصعود إليه «رحلة وَجْد» الى مركز العالم. والحاج اذ يبلغ سطحه الأعلى فإنما يحقق تقاطعاً في المستوى؛ يلج «اقلية طهوراً» ويسمو عن العالم الدنيوي.

دور - ان - كي، «صلة ما بين السماء والأرض»: هكذا كان يسمى عدد من المقدس البابلية (في نيبور ولارصا وسيفار، الخ.). وكان لبابل طائفة من الأسماء منها «بيت اساس السماء والأرض»، «صلة ما بين السماء والأرض». لكن بابل وحدها كانت تنعقد فيها الصلة بين الأرض والأقاليم الدنيا، لأن المدينة كانت مشيدة على «باب - أبسو». و«أبسو» كلمة تدل على «مياه العماء قبل الخلق». واننا لنجد نفس الاعتقاد عند العبرانيين: صخرة هيكل اورشليم تغوص في اعماق تيحوم tehom، المعادل العبري للأبسو البابلي. وكما كان لبابل «باب - أبسو»، كذلك كانت صخرة هيكل اورشليم تسد «فم تيحوم».

فالأبسو والتيحوم يرمزان معاً إلى «العماء المائي»، الى وضعية المادة الكونية قبل التشكل، وعالم الموت، وكل ما يسبق الحياة ويتبعها. «باب - أبسو»، والصخرة التي تسد فوهة تيحوم، تدلان لاعلى نقطة التقاطع (وبالتالي نقطة الاتصال) بين العالم الأدنى

والأرض وحسب، وإنما على الفرق في النظام الأنطولوجي بين هذين الصعيدين الكونيين أيضاً. ثمة انقطاع في المستوى بين تبحر وصخرة الهيكل التي تسدّ فوّته، انتقال من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل، من الموت إلى الحياة. والعماء المائي الذي يسبق الخلق يرمز في الوقت نفسه إلى النكوص في غير المتشكّل الذي يحدثه الموت، والعودة إلى الحالة الشبحية من الوجود. من وجهة نظر معينة، تتشاكل الأقاليم الدنيا مع الأقاليم المهجورة والمجهولة التي تحيط بالأراضي المسكونة. فالعالم الأسفل الذي ينهض «كُونًا» فوقه شبّات، يتطابق مع «العماء» الذي يمتد إلى حدوده.

### «عالمنا» يقع دائماً في المركز:

من كل ما تقدم نخلص إلى أن «العالم الحقيقي» يقوم دائماً في وَسْطٍ أو «مركز»، لأنه في المركز يحدث الانقطاع في المستوى، وبالتالي الاتصال فيما بين المناطق الكونية الثلاث. فالأمر يتعلق دائماً بكون تام مهما كان امتداده. فبلاد بكاملها، أو مدينة، أو هيكل، كل ذلك يمثل صورة العالم *imago mundi*. كتب فلافيوس يوسفوس بصدد رمزية الهيكل أن الباحة تمثل «البحر» (أي الأقاليم الدنيا)، والحرّم (المقدس) يمثل الأرض، وقُدس الأقداس يمثل السماء. من ذلك يتضح أن «صورة العالم»، وكذا «المركز»، يتكرران في قلب العالم المأهول. ففلسطين والقُدس والهيكل يمثل كل منها، وفي نفس الوقت، صورة العالم ومركز الدنيا. إن مضاعفة «المراكز»،

وتكرار صورة العالم، على مستويات تتواضع باطراد، انما يشكل احدى العلامات النوعية على المجتمعات التقليدية.

ثمة نتيجة يبدو لنا انها تفرض نفسها: ان إنسان المجتمعات قبل الحديثة يتطلع إلى ان يحيا أقرب ما يمكن من «مركز العالم»، فهو مع علمه ان بلاده تقوم فعلاً في وسط الأرض، وأن مدينته تكون سُرّة العالم، وان المعبد او القصر، بخاصة، هما مركزان حقيقيان للعالم، الا انه يتطلع ايضاً إلى ان يقوم منزله الخاص به في المركز، وان يكون صورة للعالم. كما سوف نرى، يفترض في المسكن ان توجد فعلاً في مركز العالم، وأن تكون تكراراً لخلق العالم، على صعيد العالم الأصغر. بعبارة أخرى، ان إنسان المجتمعات التقليدية لم يكن في وسعه ان يعيش الا في مكان «منفتح» على الأعلى، حيث انقطاع المستويات مضمون رمزياً، وحيث الاتصال مع «العالم الآخر»، العالم «المفارق» ممكن رمزياً ايضاً. يتضح من هذا ان المحرم القدسي، وهو «المركز» بامتياز يصبح في متناوله، بما هو في مدينته او بيته؛ ولكي يتصل بعالم الآلهة حَسْبُهُ ان يلج المعبد.

لكن الإنسان الديني كان يحس الحاجة الى ان يعيش دائماً في المركز، تماماً مثل الأشلبا الذين، كما رأينا، كانوا دائماً يحملون معهم العمود المقدس، محور العالم، لكيلا يتعدوا عن المركز ويظلوا على اتصال بالعالم الذي يسمو على عالم الأرض. بكلمة واحدة، ان إنسان المجتمعات التقليدية، مهما كانت أبعاد مكانه المألوف له - بلاده، مدينته، قريته، بيته - يظل يستشعر الحاجة إلى ان يوجد دائماً في عالم كلي ومنظم، في «كُون» Cosmos.

يولد العالم من مركزه، يحتد من نقطة مركزية هي منه «كالسرة». انه هكذا، على ما تقول «ريك فيدا» (١٠، ١٤٩)، يولد العالم وينمو انطلاقاً من نواة، من نقطة مركزية. الا ان الماثور اليهودي اصرح اذ يقول ان القدوس خلق العالم كما يخلق الجنين. وكما ينمو الجنين ابتداءً من السرة، كذلك بدأ الله خلق العالم ابتداءً من السرة، ومنها كان انتشاره في جميع الجهات. ومركز العالم هو الأرض المقدسة. ويؤكد «يوما» «Yoma» «خلق العالم ابتداءً من صهيون». ويقول احد احبار اليهود ان صخرة اورشليم «تدعى حجر اساس الأرض، اي سرة الأرض، لأنه منها كان انتشار الأرض كلها». من ناحية ثانية، لأن خلق الإنسان نسخة عن ولادة الكون، كان خلق الإنسان الأول في «سرة الأرض» (ماثور رافدني)، في مركز العالم (ماثور إيراني)، في الفردوس، القام في «سرة العالم»، او في اورشليم (ماثور يهودي - مسيحي). لم يكن من الممكن أن يكون الخلق بخلاف ذلك، باعتبار ان المركز هو بالضبط المكان الذي يحدث فيه انقطاع في المستوى، حيث يصبح المكان مقدساً، حقيقياً بامتياز. ان الخلق ينطوي على وفرة من الواقع، بعبارة أخرى، على تفجر القدسي في العالم.

ينتج عن ذلك ان كل بناء يُشيد او شيء يُصنع يُتخذ له الكون نموذجاً مثالياً. فخلق العالم يصبح النموذج الأصلي او البدئي لكل بادرة خلق يتدرها الإنسان، كائنة ما كانت الخطة التي يرجع إليها. وقد رأينا أن الإقامة في أرض تكرر فعل نشوء الكون. بعد ان بينا ما للمركز من قيمة كوسموغونية، صار بوسعنا الآن ان نفهم بصورة افضل لماذا يكرر كل بناء يشيده الإنسان خلق العالم انطلاقاً من نقطة مركزية

(«السُرّة»). على صورة العالم الذي ينمو ابتداءً من مركز ويمتدّ نحو الجهات الأصلية الأربع، تُشَبِّد القرية انطلاقاً من نقطة تقاطع. في «بالي» BALI، كما في بعض أقاليم آسيا، بعد أن يتم الاستعداد لبناء قرية جديدة، يفتشون عن نقطة تقاطع طبيعية، حيث يتقاطع طريقان عمودياً. والمرتع الذي يبنى انطلاقاً من نقطة مركزية هو صورة للعالم Imago mundi. ثم تقسم القرية إلى أربعة قطاعات، وهو تقسيم ينطوي على تقسيم يوازيه للمجتمع، وفي نفس الوقت يتطابق مع تقسيم العالم إلى أربعة آفاق. ويتركون في وسط القرية مكاناً خالياً على الأغلب، حيث يرفعون فيما بعد بيت العبادة الذي يمثل سقفه السماء رمزياً (أحياناً يُشار إلى السماء برأس شجرة أو صورة شجرة). وعلى نفس المحاور العمودي توجد النهاية الأخرى، عالم الأموات، مرموزاً إليه بحيوانات معينة (ثعبان، تمساح) الخ. . . اورسوم تدل على الظلمات<sup>(١)</sup>.

الرمزية الكونية للقرية في بنية الحرم أو في بيت العبادة. ففي «واروين» بغينيا يقع «بيت الرجال» (أو منزل القوم) في وسط القرية، سقفه يمثل القبة السماوية، وتتطابق أضلاعه الأربع مع الجهات الأصلية الأربع. وفي سيرام، يرمز حجر القرية المقدس إلى السماء، والأعمدة الحجرية الأربعة التي ينهض عليها تمثل الأعمدة الأربعة التي تنهض عليها السماء<sup>(٢)</sup> كذلك نجد مثل هذه المفاهيم لدى قبائل

(1) Cf. C.T. BERTLING, VIERZAHL, Kreuz und andale inAsien ;Amsterdam, 1954), PP. 8 sq.

(2) Voir les références dans BERTLING, op. cit., PP. 4 - 5

الألكونكيين والسيوكس؛ فالكوخ المقدس عندهم، حيث يجري تسليم الأسرار، يمثل العالم؛ يرمز سقفه الى القبة السماوية، وتمثل قاعه الأرض، وتمثل أضلاعه الأربع الجهات الكونية الأربع، والبناء الطقسي للمكان يتميز برمزية ثلاثية: الأبواب الأربعة والنوافذ الأربع والألوان الأربعة وكلها تعني الجهات الأصلية الأربع. فبناء الكوخ إذن يكرر فعل ولادة الكون<sup>(1)</sup>.

لا عجب إذن ان نلاقي مثل هذا المفهوم في ايطاليا القديمة وعند قدماء الجرمان. وعلى الجملة، ان الامر يتعلق بفكرة قديمة وواسعة الانتشار: انطلاقاً من مركز تنبث الآفاق الأربعة في الجهات الأصلية الأربع. كان العالم الروماني عبارة عن حفرة مستديرة، مقسمة إلى أربعة اقسام، كان في نفس الوقت صورة للكون والنموذج لسكن الإنسان. وقد رأى بعضهم دائماً انه يجب الا نفهم من «روماكوأثراتا» انها مربعة الشكل، بل مقسمة أربعة اقسام<sup>(2)</sup>. لقد كان «المُندوس» (العالم) مماثلاً للأفقالوس (سُرّة الأرض): المدينة (إيريس urbs) تقع في وسط الفلك الأرضي (أربيس ترأرم).

وقد امكننا التعرف على افكار مماثلة تفسر لنا بنية القرى والمدن الجرمانية<sup>(3)</sup>. وفي نصوص ثقافية بالغة التنوع، نجد دائماً نفس

---

(1) Voir les matériaux groupés et interprétés par WERNER MÜLLER, Die blaue Hütte (Weisbaden, 1954). PP. 60 sq.

(2) F. ALTHEIM, chez WERNER MÜLLER, Kreis und Kreuz (Berlin, 1938), PP. 60 sq.

(3) Ibid., PP. 65 sq. Cf aussi W. MÜLLER, Die heilige Stadt (Stuttgart, 1961).



المخطط الكوسمولوجي ونفس المشهد (سناريو) الطقسي : الإقامة في أرض هي تأسيس عالم .

## المدينة - الكون :

ان كان «عالمنا» كوناً بحق ، كان كل هجوم خارجي عليه يهدده بأن يحيله الى «عماء» . ولما كان عالماً قد تأسس محاكاة للعمل النموذجي الذي قام به الآلهة ، اي خلق الكون ، كان الأعداء المهاجمون بمثابة اعداء الآلهة ، الشياطين ، وخصوصاً كبيرهم ، التين البذئي الذي قهرته الآلهة في بدايات الزمان . ولذلك كان الهجوم على «عالمنا» هو انتقام التين الميطيقي الذي يتمرد على عمل الآلهة ، الكون Cosmos ، ويحاول ان يردّه الى العدم . وعلى هذا تُصنّف الأعداء في جملة قوى العماء Chaos . كل خراب يحل بمدينة فهو نكوص الى العماء . وكل نصر على الأعداء يكرر النصر النموذجي الذي احرزه الله على التين (على «العماء»).

ولذلك كان الفرعون يُشبه بالإله رع ، قاهر التين ابو فيس ، وأعداؤه يُشبهون بهذا التين الميطيقي . وكان داريوس (دارا) يعتبر نفسه «ثريتاونا» جديداً ، وهو البطل الأسطوري الإيراني الذي قتل التين ذا الثلاثة الرؤوس . وفي المأثور اليهودي ، يوصف الملك الوثني بالتين ؛ هكذا جاء وصف نبوخذ نصر على لسان إرميا (٥١ : ٣٤) ، او بومبي في مزامير سليمان (٩ : ٢٩)\* .

\* هكذا في الأصل : les Psaumes desatomon ؛ لكننا لم نجد في اسفار العهد القديم مفعلاً باسم «مزامير سليمان» ؛ المعروف ان «المزامير» تنسب إلى داودا - المترجم -

فالتنين هو الشكل النموذجي لهولة البحر، والشعبان البدني، ورمز المياه الكونية والدياجير والليل والموت، بكلمة واحدة، هو رمز لما لا شكل له ولا صورة، رمز للموجودة «بالقوة»، ولكل ما لم يرتد شكلاً أو صورة بعد. ولذلك لم يكن بد من قتل التنين وتمزيقه إرباً من قبل الله حتى يأتي الكون الى الوجود. والإله مردوك انما خلق العالم من جسد هولة البحر، «تيامات». والإله يهوه انما خلق العالم بعد انتصاره على الهولة، «رهب». لكن هذا النصر الذي أحرزه الله على التنين يجب ان يتكرر رمزياً في كل سنة، لأنه في كل سنة يجب ان يخلق العالم خلقاً جديداً. كذلك يتكرر انتصار الآلهة على قوى الظلام وعلى الموت والعماء كلما انتصرت المدينة على غزائها.

من المحتمل جداً ان يكون الدفاع عن الأماكن المأهولة وعن المدن والحواضر هو في اصل الوقاية او التحصن من السحر. وقد اتخذ هذا النوع من الدفاع شكل الخنادق والمتاهات والأسوار. وإنما أعدت هذه الاستحكامات لكي تمنع غزو الشياطين وأرواح الموتى أكثر من منع الهجوم الذي تقوم به كائنات بشرية. في شمال الهند اذا نزل بالقوم وباء، رسموا حول المدينة دائرة لكي يمنعوا شياطين المرض من التسلل إلى داخل السور. وفي الغرب الوسيط، كانت أسوار المدينة تَطُوبُ طقسياً على اساس انها استحكامات تصد الشياطين والمرض والموت. هذا الى ان الفكر الرمزي لا يلقي صعوبة في تشبيه العدو البشري بالشیطان وبالموت. ثم ان النتائج التي تنجم عن الغارات التي يشنها الأعداء، سواء اكانت شيطانية أم عسكرية، هي نفسها دائماً: الدمار والتحلل والموت.

وما زلنا حتى اليوم نستخدم نفس الصور والتعابير كلما تعلق الأمر بوصف الأخطار التي تتهدد نموذجاً او نمطاً معيناً من الحضارة. فتتكلم خصوصاً عن «العماء» و«الفوضى» و«الظلمات» التي سوف يفرق فيها عالمانا. فهذه التعابير جميعها انما تعني القضاء على نظام أو كون أو بنية عضوية، وعودة بالعالم الى حالة من السبولة واللا شكل؛ بكلمة واحدة، الى حالة عمائية. ان هذا يبرهن على ان الصور النمطية ما زالت حية في اللغة والرواسم التي يستخدمها الإنسان الحديث؛ اي ان شيئاً من المفهوم التقليدي للعالم لم يزل موجوداً في مسلكه، رغم انه لا يعني دائماً هذا الإرث البعيد.

### الاضطلاع بخلق العالم :

في الوقت الحاضر نقتصر على إبراز الفرق الجذري بين المسلكين - التقليدي والحديث - تجاه مسكن الإنسان. لا حاجة بنا الى توكيد ما للمسكن من قيمة ووظيفة في المجتمعات الصناعية، فهما معروفتان تماماً. فعلى حد تعبير احد كبار مهندسي العمارة المعاصرين، البيت «مكنة للسكنى». فهو يندرج في جملة المكنات التي لا حصر لها، والتي تُنتج على طراز واحد في المجتمعات الصناعية. البيت المثالي في عالمنا الحديث يجب ان يكون قبل كل شيء شأناً وظيفياً، اي ان يُتيح للناس ان يعملوا وأن يلتبسوا فيه الراحة ضمناً للعمل. ويمكننا أن نبدل «مكنة السكن» بمقدار ما نبدل دراجة أو برّاداً أو سيارة. كذلك يمكننا ان نبارح مدينتنا او مسقط رأسنا بدون ان نزعج من شيء اللهم الا ما نلاقه من جوّاء تبدل المناخ.

ليس من موضوعنا ان نؤرخ للتجريد البطيء عن القدسية الذي تعرض له المسكن البشري . لأن هذا السياق يشكل جزءاً لا يتجزأ من التغيير الهائل الذي طرأ على العالم والذي اضطلعت به المجتمعات الصناعية . وهو التغير الذي أتاحه تجريد الكون من القدسية تحت تأثير الفكر العلمي ، وخصوصاً الاكتشافات المثيرة في ميادين الفيزياء والكيمياء . ولسوف نتساءل فيما بعد ان كان اعتبار الطبيعة شأناً دنيوياً هو أمر نهائي حقاً ، وإن كانت لا توجد إمكانية لدى الإنسان الحديث يستعيد بها ذلك البعد المقدس من الوجود في العالم . كما رأينا قبل قليل ، وكما سوف نرى بصورة الفضل فيما بعد ، ان صوراً تقليدية معينة ، او آثاراً معينة من سلوك الإنسان قبل الحديث ، لم تزل موجودة في حالة من «استمرار الحياة» ، وهي موجودة حتى في أكثر المجتمعات تصنعاً . لكن الذي يهمنا ، في الوقت الحاضر ، هو ان نبين المسلك التقليدي تجاه المسكن في حالته الثقية ، وان نستخلص منه ما ينطوي عليه من «نظرة الى العالم» .

تتطلب الإقامة في ارض وتشييد مسكن فيها قراراً حيوياً بالنسبة للجماعة كلها كما بالنسبة للفرد . ذلك لأن الأمر يتعلق بخلق «العالم» الذي تم اختياره للسكن . يجب عليه ، اذن ، ان يحاكي عمل الآلهة ، وهو ولادة الكون Cosmogonie . وهذا ليس دائماً بالأمر السهل ، لأن هناك أنواعاً من ولادات الكون ذات صفة مأساوية ودامية ؛ فالإنسان بما هو مقلد للبادرات الإلهية يجب عليه أن يكررها . فإذا كان قد تعيّن على الآلهة ان يصرعوا هولة البحر او كائناتاً بذتياً آخر ويقطعوه إرباً لكي يخلقوا منه العالم ، فإن الإنسان ، بدوره ، يتعيّن عليه أن يحاكي فعل

الآلهة عندما يريد ان يبنى لنفسه عالمه ، مدينته او بيته . من هنا نشأت ضرورة تقديم القرابين الدامية ، او الرمزية ، بمناسبة تشييد الأبنية . وهو ما يفرض علينا قول بضع كلمات في هذا الشأن .

مهما كانت بنية المجتمع التقليدي ، سواء أكان مجتمع صيادين - رعاة ، مزارعين ، ام كان مجتمعاً في مرحلة الحضارة البلدانية ، فلا بد من تقديس المسكن دائماً ، لأنه يشكل صورة للعالم ، ولأن العالم خلق إلهي . لكن هناك طرق كثيرة يتماثل فيها المسكن مع الكون ، تماماً كما ان هناك نماذج كثيرة من خلق الكون . فيما نحن بصدده ، حسبنا أن نميز طريقتين لتحويل المسكن طقسياً من مجرد مسكن الى كون Cosmos ، وذلك بإيلائه قيمة صورة العالم :

أ) بمماثلته للكون بواسطة تعيين الآفاق الأربعة بدءاً من نقطة مركزية ان كان الأمر يتعلق بقرية ، او بإقامة رمزية لمحور العالم ان كان الأمر يتعلق بمسكن عائلي ؛

ب) بتكرار الفعل النموذجي الذي قامت به الآلهة ، والذي بفضلهُ وُلد الكون من جسد تنين بحري او من عملاق بذئي ، وذلك عن طريق أداء طقس البناء .

لن نؤكد هنا على الفرق الجذري في « النظرية الى العالم » بين هاتين الطريقتين اللتين يتم بهما تقديس المسكن ، وعلى ما تنطويان عليه من مسلّمات تاريخية - ثقافية ، بل تقتصر على القول أن الطريقة الأولى - تصوير المكان كوناً بواسطة تعيين الآفاق الأربعة او إقامة محور العالم - نشهدُها في اقدم المراحل الثقافية (ارجع الى عمود وكُوا - أووا عند الأشلبا الأستراليين) . على حين يُعتقد أن الطريقة الثانية قد

بُدىء بها في ثقافة الفلاحين القدماء . ان ما يهمنا هنا هو ان المسكن في جميع الثقافات التقليدية يجب ان يكون له مظهر مقدس ، ومن هنا بالذات يكون انعكاساً للعالم .

تُظهر لنا مساكن البدائيين من اهالي القطب الشمالي وأميركا وآسيا الشماليّتين عموداً مركزياً يتمثل فيه محور العالم او العمود الكوني أو شجرة العالم الذي يصل الأرض بالسما ، كما رأينا . بعبارة أخرى ، في بنية المسكن نفسه تتكشف الرمزية الكونية : فالسما خيمة كبيرة يسندها عمود مركزي ، ووتد الخيمة او العمود المركزي في البيت تتمثل فيه أعمدة العالم ويعرف بهذا الاسم . وعند قاعدة العمود المركزي تذبج القرايين على شرف الكائن السماوي الأعلى ؛ ان هذا يعطينا فكرة عن أهمية العمود من حيث وظيفته الطقسية . وقد احتفظ بهذه الرمزية نفسها رعاة آسيا الوسطى ، لكن المسكن ذا السقف المخروطي والعمود المركزي اذا استعاض عنه بالـ«يُورط» Yourte (خيمة لباد مغولية) ، انتقلت الوظيفة الميطيقية - الطقسية للعمود فأصبحت الكوة العليا منفذاً لتبديد الدخان . والشجرة المعرّة من اغصانها ، هي كالعمود ، يتفد اعلاها من كوة اليورط العليا (وهي ترمز إلى الشجرة الكونية) ، هي بمثابة سلّم يؤدّي إلى السماء : عليه يتسلق الشامانيون في رحلاتهم السماوية . فمن هذه الكوة العليا يحلّقون في السماء<sup>(١)</sup> . وفي افريقيا ايضاً ، نجد العمود المقدس ، منتصباً وسط

---

(1) M. ELIADE, Le Chamanisme et les techniques archaïques de l'extase (Paris, 1951), PP. 238 sq.

المسكن، عند اقوام الرعاة من الحاميين او شبه الحاميين<sup>(١)</sup>.  
ملاك القول ان كل مسكن فلانما يقع بالقرب من محور العالم،  
لان الإنسان الديني يصبو إلى العيش في «مركز العالم»، بعبارة أخرى  
في الحقيقي.

## ولادة الكون وقربان البناء:

واننا لنجد مثل هذا المفهوم في ثقافة مرتقية جداً كثقافة الهند،  
لكنه هنا يظهرنا ايضاً على الطريقة الأخرى من مماثلة البيت للكون،  
وقد قلنا عنها بضع كلمات فيما تقدم. قبل ان يُرسي البناؤون الحجرة  
الأولى، يدلهم المنجم على نقطة الأساسات التي تقع فوق الشعبان  
الذي يسند العالم، يقوم المعلم المعمار بقطع وتد ويغرسه في  
الأرض، تماماً في النقطة التي عيّنها المنجم، وبذلك يسحق رأس  
الشعبان. ثم يضع حجر الأساس فوق التود، بحيث يكون موقع حجر  
الزاوية في «مركز العالم» تماماً<sup>(٢)</sup>. لكن فعل التأسيس، من ناحية  
ثانية، يكرر الفعل الكوسموغوني (ولادة الكون): فما غرس التود في  
رأس الشعبان و«سحقه» إلا محاكاة للبادة الأولى التي ابتدراها «سوما»  
او «اندرا» الذي، على حد قول الـ«ريك فيدا»: «ضرب الشعبان في  
جحره» (٦، ١٧، ٩) وقطع له رأسه «بومضة» منه (١، ٥٢، ١٠).  
وكما سبق وقلنا، ان الشعبان يرمز الى العماء، الى ما لا شكل له، الى

(1) WILHELM SCHMIDT, -DER Heilige Mittl Pfahl des Hauses- (ANTHOROPOS, XXXV - XXXVI, 1940 - 1941), P. 967.

(2) S. STEVENSON, The Rites of the Twice - Born (oxford, 1920) P. 354

من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل، ومما ليس له شكل وصورة إلى ما له شكل وصورة. ما علينا إلا أن نتذكر أن الإله مردوك خلق العالم من جسد الهولة البحري البدئي، ثيامات، وأن هذا الانتصار الذي حققه مردوك يتكرر رمزياً في كل سنة، لأنه في كل سنة يتجدد خلق العالم. لكن هذا الانتصار النموذجي يتكرر أيضاً في كل عملية بناء، لأن كل بناء جديد هو إعادة خلق العالم.

لكن هذا النموذج الثاني من ولادة العالم أكثر تعقيداً وأحفل بالصور والرموز؛ لن تناول منه هنا إلا خطوطه العريضة. لكن ليس لنا غناء عن التذكير به في نهاية المطاف، لأنه في هذا النموذج من الولادة الكونية يتجمع مالا حصر له من صور قرابين التعمير التي ما هي، في جملتها، غير محاكاة رمزية في الغالب للذبيحة البدئية التي منها كانت ولادة العالم. ثم إنه انطلاقاً من نموذج ثقافي معين، تُفسر لنا الميثولوجيا الكوسموغونية خلق العالم بواسطة قتل عملاق (إيمير في الميثولوجيا الجرمانية، بوروشا في الميثولوجيا الهندية، بان كو في الصين): من أطرافه تولد مختلف الأقاليم الكونية. وتذهب طائفة أخرى من الأساطير إلى أنه ليس الكون وحده هو الذي يولد بعد التضحية بكائن بدئي، بل من مادته بالذات تتكون أيضاً النباتات الغذائية والأعراق البشرية أو الطبقات الاجتماعية على اختلافها. وأنه بناء على هذا النموذج من الأساطير الكوسموغونية تعتمد القرابين التي تقرب عند تشييد عمارة. لكي يدوم «المبنى» (بيت، معبد، مكان عمل، الخ). يجب استحياءه (= نفع الحياة فيه)، وأن تكون له في نفس الوقت حياة



ونفس . وانتقال النفس لا يتحقق الا بواسطة ذبيحة يسيل دمها . وقد اشتمل تاريخ الأديان والإنولوجيا والفولكلور على مالا حصر له من صور قرابين التعمير والقرابين الدامية أو الرمزية التي تُقرب لمنفعة المبنى . ففي الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا ، كانت هذه الطقوس والعقائد مصدراً لقصائد شعبية مذهشة ، فهي تروي لنا التضحية بامرأة معلم المعمار لكي يمكن انجاز المبنى (يرجع إلى قصائد جسر أرتا في اليونان) ودير أرغش في رومانيا ، ومدينة سكوتاري في يوغوسلافيا ، الخ .)

تكلمنا بما يكفي عما ينطوي عليه المسكن البشري من مغزى ديني بغية الوصول إلى نتائج تفرض نفسها بنفسها . فالبيت ، كالمدينة أو المقدس ، يتقدس كلاً أو بعضاً بواسطة رمز أو طقس كوسموغوني . وإنه لهذا السبب كان النزول في ناحية ، أو بناء قرية أو حتى بيت ، قراراً بالغ الخطورة ، لأن وجود الإنسان نفسه مرتبط به ، لأنه يتعلق بخلق «عالم» خاص به ، والاضطلاع بمسؤولية المحافظة عليه وتجديده . والإنسان لا يبدل موطنه الا مكرهاً ، لأنه ليس من السهل عليه ان يتخلى عن «عالمه» . ليس المسكن شيئاً ، ولا «مكنة للسكنى» ، بل هو العالم الذي يبينه الإنسان محاكاةً للخلق النموذجي الذي قام به الآلهة ، الكوسموغونيا . كل مبنى وكل تدشين لمسكن جديد يساوي بنوع ما «بدءاً جديداً» ، «حياة جديدة» . وكل بدء انما يكرر البدء الأولي الذي رأى فيه العالم النور اول مرة . حتى في المجتمعات الحديثة ، المسرفة في دينويتها ، مازالت الاحتفالات والأفراح التي تصاحب الإقامة في مسكن جديد ، مازالت تحتفظ بذكرى

المهرجانات الصاخبة التي كانت فيما مضى علامة على «بداية حياة جديدة».

بما ان المسكن يشكل صورة للعالم ، اقتضى ان يكون موقعه رمزياً في «مركز العالم» . وكثرة «مراكز العالم» . بل لا نهائيتها ، لا تشكل صعوبة امام الفكر الديني . هذا إلى ان الموضوع لا علاقة له بالمكان الهندسي ، وإنما بمكان وجودي مقدس يبرز بنية أخرى مغايرة كل المغايرة ، مكان قابل لما لا حصر له من الانقطاعات ، وبالتالي من الاتصالات مع المتعالي . رأينا ما للكوة العليا في مختلف صور المساكن في مختلف الثقافات من المعاني الكوسمولوجية والوظائف الطقسية . هذه المعاني والوظائف انتقلت إلى المدخنة (نقب الدخان) وإلى الجزء من السقف الذي نجده فوق «الزاوية المقدسة» ، والذي يصار إلى اقتلاعه أو حتى كسره في حالات الحزن المستديم . ولسوف نبين ، عندما نتعرض للمماثلة بين الكون والبيت وجسم الإنسان ، ما لهذا «الانقطاع في السقف» من عميق المغزى والأهمية . حالياً ، حسبنا ان نذكر بأن المحارم المقدسة القديمة كان فيها كوة في السقف ، تسمى «عين القبة» وترمز إلى انقطاع المستوى والاتصال بالمتعالي .

كل ما قامت به العمارة المقدسة انها تناولت الرمزية الكوسمولوجية الماثلة في بنية المساكن البدائية وطورتها . والمسكن البشري العادي ، بدوره ، كان سبقه كرونولوجياً «المكان المقدس» الوقتي ، أي المكان الذي تطوَّب مؤقتاً ، وصار «كوناً» (يرجع إلى أصلها أوستراليا) . بعبارة أخرى ، ان جميع الرموز والطقوس المتعلقة بالمعابد

والمدن والبيوت تُمَتَّح ، في نهاية المطاف ، من الخبرة الأولى للمكان المقدس .

## المعبد ، الباسيليكا ، الكاتدرائية

في الحضارات الشرقية الكبرى - من بلاد الرافدين ومصر إلى الصين والهند - أضيف إلى المعبد قيمة جديدة وهامة . لم يعد المعبد صورة للعالم وحسب ، وإنما نسخة أرضية من نموذج سماوي أيضاً . وقد ورثت اليهودية هذا المفهوم الشرقي القديم عن المعبد من حيث هو نسخة من نموذج بذني سماوي . وربما كانت هذه الفكرة من التفسيرات الأخيرة التي اعطاها الإنسان الديني لخبرته الأولى للمكان المقدس في مقابل المكان الدنيوي . هنا يجب ان نؤكد قليلاً على المنظورات التي يفتحها أمامنا هذا المفهوم الديني الجديد .

ملاك القول : ان كان المعبد صورة للعالم ، فلأنه عالم مقدس بما هو من عالم الآلهة . لكن بنية المعبد الكوسمولوجية تفضي بنا إلى إعطائه قيمة دينية جديدة : المكان المقدس بامتياز ، بيت الآلهة ، المعبد ، ما يفتأ يقدس العالم ، لأنه يمثل ويحتويه في الوقت نفسه . فالعالم ، مهما تنجّس ، ما ينفك يتطهر بفضل قدسية المحارم .

انطلاقاً من هذا الفرق الأنطولوجي بين الكون وصورته المقدسة ، وهي المعبد ، تظهر فكرة أخرى : ان قدسية المعبد قائمة في كنف كل فساد أرضي ، وما ذلك إلا لأن تصميمه الهندسي هو من عمل الآلهة وبالتالي لأن موقعه قريب من الآلهة ، في السماء . فنماذج

المعابد، بما هي متعالية، تتمتع بوجود روحي، سماوي، لا يتطرق اليه فساد. وإنما بفضل الآلهة يصل الإنسان إلى رؤية هذه النماذج بصورة خاطفة، يسعى بعدها إلى محاكاتها على الأرض. فالملك البابلي، كوديا، رأى في الحلم الإلهة نيدابا تطلعه على لوح كتب عليه النجوم السعيدة وإله يريه تصميم المعبد. كذلك ابتنى سنحريب مدينة نينوى على هيئة المشروع الذي كان اعتماده في الأزمنة السحيقة عند خلق السماء. ليس معنى هذا ان اقتسام القدسية السماوية كان قاصراً على المباني الأولى وحسب، وإنما كان يمتد ليشمل النماذج المعمارية الموجودة في السماء أيضاً.

بالنسبة لبني اسرائيل، المظلة والأنية المقدسة والهيكل - كل ذلك كانت نماذجه عند يهوه منذ الأزل، وإن يهوه هو الذي أوحى بها إلى انبيائه لكي يصنعوها على الأرض طبقاً لنماذجها في السماء. فقد خاطب يهوه موسى بهذه الكلمات: «فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم. بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع أتيته هكذا تصنعون» (خروج ٢٥ : ٨ - ٩). «وانظر فاصنعها على مثالها الذي أظهر لك في الجبل (خروج ٢٥ : ٤٠). وعندما اعطى داود ابنه سليمان رسم مباني المعبد والمقدس وجميع الأنية اكد له قائلاً: «قد أفهمني الرب كل ذلك بالكتابة بيده علي أي كل اشغال المثال» (اخبار الأيام الأول ٢٨ : ١٩). فهو إذن قد رأى النموذج السماوي الذي خلقه يهوه في بدء الزمان. وهذا ما أعلنه سليمان: «أمرتني ان أبني الهيكل باسمك القدوس ومذبحاً في المدينة حيث

تسكن، على مثال الخيمة المقدسة التي اعدتها منذ البدء (الحكمة ٩: ٨).

خلق الله اورشليم السماوية في نفس الوقت الذي خلق فيه الفردوس، أي في الأزل. ولم تكن اورشليم الا نسخة تقريبية من نموذجها الأعلى. قد يدنسها الإنسان لكن نموذجها لا يتطرق اليه فساد، بما هو غير مُنطو في الزمان. «البناء الذي يوجد حالياً في وسطكم ليس هو الذي تجلّى فيّ، انما هو الذي كان مُعداً منذ الزمن الذي عزمت فيه على خلق الفردوس، والذي أطلعتُ آدم عليه قبل خطيئة (رويا باروك ٢، ٤ : ٣ - ٧)»<sup>(١)</sup>.

تعتبر الباسيليكا المسيحية، ومن بعدها الكاتدرائية، استمراراً لجميع هذه الرمزيات وتوسعاً فيها. فالكنيسة، من جهة، تحاكي اورشليم السماوية؛ وقد كانت تعتبر كذلك منذ اقدم الأزمنة المسيحية. والكنيسة، من جهة أخرى، تعيد خلق الفردوس أو العالم السماوي. لكن البنية الكوسمولوجية للمبنى المقدس لم تزل قائمة في وعي المسيحية، وهي في الكنيسة البيزنطية أظهر. «الأقسام الأربعة في داخل الكنيسة ترمز إلى الجهات الأصلية الأربع، والمذبح الذي يقع إلى الشرق يرمز إلى الفردوس. والباب العلوي الذي يُفضي إلى المقدس كان يسمى ايضاً باب الفردوس». وفي اسبوع الفصح، يظل

---

• لا وجود لهذه الرؤيا في اسفار العهد القديم المعتمدة لدى الكنيسة البروتستانتية أما الاسفار المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية ففيها سفر بعنوان «نبوة باروك»، لكن الأعداد التي يشير اليها المؤلف ليس فيها شيء من الكلام الذي استشهد به. - المترجم -

هذا الباب مفتوحاً طوال مدة خدمة القُدّاس . واننا لنجد تفسير هذه العادة في قانون الفصح : يقوم المسيح من القبر ويفتح لنا ابواب الفردوس . اما الغرب فهو إقليم ظلمات الحزن ، اقليم الموت ، مقام الأموات الأبدي الذين ينتظرون انبعاث الأجساد والدينونة الأخيرة . اما وسط المبنى فهو الأرض . وفقاً لمفاهيم كوسماس انديكوبلوسستوس ، الأرض مستطيلة تحدها اضلاع اربع فوقها قبة . والأجزاء الأربعة في داخل الكنيسة ترمز إلى الجهات الأصلية الأربع . والكنيسة البيزنطية ، بما هي صورة الكون ، تجسد العالم وتقده في الوقت نفسه .

## بضع نتائج

من آلاف الأمثلة التي هي في تصرف مؤرخ الأديان لم نذكر هنا الا القليل ، لكن هذا القليل يكفي مع ذلك لبيان ما في خبرة المكان الدينية من تنوع . وانما تخيّرنا هذه الأمثلة من ثقافات وعصور مختلفة لكي نبرز على الأقل من التعابير الميثولوجية اهمها ومن المشاهد الطقسية ما يعتمد على خبرة المكان المقدس . لقد اختلف تقويم الإنسان الديني لهذه الخبرة الأساسية على مدى التاريخ . ما علينا إلا ان نقارن مفهوم المكان المقدس ، وبالتالي الكون cosmos ، لدى الأشلبا الأوسترايين ، بما يماثله لدى الكواكيوتل أو الألاتايك أو سكان الرافدين ، حتى ندرك ما بينها من فروق . ليس يجدي التوسع في هذه البديهية : الحياة الدينية التي عاشتها البشرية على مدى حقب التاريخ ، وكذا تعابيرها ومصطلحاتها ، مشروطة بعدد كبير من

اللحظات التاريخية والأنماط الثقافية. ومع ذلك فليس التنوع الذي لا نهاية له من الاختبارات الدينية للمكان هو ما يهمنا هنا، بل عناصر الوحدة التي تنظمها جميعاً. لأنه يكفي ان نقابل مسلك إنسان غير ديني تجاه المكان الذي يعيش فيه بمسلك الإنسان الديني حيال المكان المقدس حتى ندرك الفرق.

إذا اردنا تلخيص ما تقدم قلنا ان خبرة المكان المقدس تجعل من «أساس العالم» أمراً في المتناول: هنا يتجلى القدسي في المكان، وسفر الحقيقي عن وجهه، ويأتي «العالم» إلى الوجود. لكن تفجر القدسي لا يقتصر على تعيين نقطة ثابتة في وسط سيولة مالا شكل له من المكان الديني، أو «مركز» في العماء وحسب، وإنما يحدث انقطاعاً في المستوى، ويعقد صلة فيما بين المستويات الكونية (الأرض والسماء)، ويتيح العبور، على صعيد انطولوجي، من نمط من الوجود إلى آخر. وان هذا الانقطاع في تنافر المكان الديني هو الذي يخلق «المركز»، ويمكن من الاتصال بـ «المتعالي» ويؤسس «العالم»، ويتيح التوجه. تبعاً لذلك، ان تجلّي القدسي في المكان له مكافئه الكوسمولوجي: كل تجلّ للقدسي في المكان أو كل تطويب لمكان يساوي «ولادة كونية»، (كوسموغونيا). ولعل النتيجة الأولى هي التالية: العالم يمكن فهمه، بما هو عالم أو كون، بمقدار ما يتكشف عن عالم مقدس.

كل عالم فإنما هو من عمل الآلهة، لأن الآلهة خلقتة خلقاً مباشراً، طوّته الإنسان و«كوّنه»، بتحيين فعل الخلق النموذجي طبقياً. بعبارة أخرى، الإنسان الديني لا يستطيع العيش إلا في عالم

مقدس، لأن مثل هذا العالم فقط هو الذي يشترك في الوجود، يوجد حقاً. هذه الضرورة الدينية تعبر عن ظمأ أنطولوجي لا يروى. الإنسان الديني متعطش إلى الوجود. وإن رهبته من «العماء»، الذي يحيط بعالمه المأهول، لتتفق مع رهبته من «العدم». والمكان المجهول الذي يمتد إلى ما وراء «عالمه»، المكان الذي لم يتخذ بعد صفة «الكون»، بما هو مكان غير مطوّب، مجرد مساحة لا تشكل لها ولم تعين وجهة لها بعد، لم تزل بلا بنية ظاهرة. هذا المكان الدنيوي هو العدم بالنسبة للإنسان الديني. فإذا ضلّ فيه، عن مغامرة فاشلة، احس فراغاً في قوامه «الوجودي»، كما لو أنه انحلّ في العماء، وآل إلى الموت.

هذا الظمأ الأنطولوجي يتجلى في اشكال عديدة، وأظهرها ما كان خاصاً بالمكان المقدس. انه إرادة الإنسان الديني ان يقيم في قلب الحقيقي، في «مركز العالم»: من حيث بدأ الكون بالوجود والامتداد نحو الأفاق الأربعة، وحيث توجد إمكانية الاتصال مع الآلهة، وحيث يوجد اقرب مكان إلى الآلهة. لقد مرّ معنا ان رمزية مركز العالم تمنح الشكل لا للبلاد والمدن والمعابد والقصور وحسب، وإنما ايضاً للمساكن البشرية حتى أكثرها تواضعاً كخيمة الصياد الجوّال، و«يُورُط» الراعي، وبيت الفلاح المقيم. باختصار، كل إنسان ديني فإنما يقيم في مركز العالم وفي مصدر الحقيقة المطلقة نفسها في الوقت نفسه، قريباً من «الكوة» التي تضمن له الاتصال مع الآلهة. لكن لما كانت إقامة الإنسان الديني في ناحية ما، وسكناء في مكان ما، ما هي ألا تكرار لولادة الكون، وبالتالي محاكاة لعمل



الآلهة، كان كل قرار وجودي ينطوي على «الإقامة في المكان قراراً دينياً». وهو إذ يضطلع بمسؤولية «خلق» العالم الذي اختار أن يسكنه لا «يكون» العماء وحسب، وإنما يقدر عالمه الصغير أيضاً إذ يجعله مماثلاً لعالم الآلهة. إن عند الإنسان الديني حنيناً عميقاً لأن يسكن في «عالم إلهي»، وهو العالم الذي صورّه فيما بعد في المعابد والمحارم المقدسة. ملاك القول إن هذا الحنين الديني يعبر عن توق الإنسان إلى الحياة في كون طاهر ومقدس، كالذي كان في البدء، عندما خرج من يدي الخالق.

إن اختبار الإنسان الديني للزمن المقدس هو ما سوف يتيح له أن يستعيد دورياً خلق «الكون»، الذي كان في البدء، في لحظة الخلق الميظيقية.



## الفصل الثاني

---

الزمان المقدس  
والأساطير



## الزمان الديني والزمان الديني

عند الإنسان الديني ، الزمان ليس أكثر من المكان تجانسية واستمرارية . ان فيه فترات مقدسة هي زمن الأعياد (واكثرها اعياد دورية) ، كذلك ان فيه الزمن الديني ، أو الديمومة العادية التي تندرج فيها الأفعال المجردة من المعنى الديني . بين هذين النوعين من الأزمنة ، يوجد ، بدهة ، قطع للاستمرارية . لكن الإنسان الديني يمكنه بواسطة الطقوس ان «يعبر» ، وهو آمن من الأخطار ، من الزمان الديني إلى الزمان المقدس .

ثمة فرق اساسي بين هذين النوعين من الأزمنة يستوقفنا للوهلة الأولى : الزمن المقدس ، من حيث طبيعته بالذات ، قابل للاسترجاع بمعنى انه زن ميطيقي (اسطوري) بذئي قابل للصيرورة في الحاضر . كل عيد ديني ، وكل زمن ليتورجي ، فإنما يتكون من تحيين لحدث جرى في ماضٍ ميطيقي ، «في البدء» ، والمشاركة الدينية في عيد من الأعياد تنطوي على خروج من الزمن الديني «العادي» بغية استرجاع

الزمن الميطيقي الذي يُحيته العيد بالذات . يترتب على ذلك ان الزمن المقدس قابل للاستعادة والتكرار بلا حدود . من وجهة نظر معينة ، يمكن القول انه «لا يجري» ، ولا يتكون من «ديمومة» غير قابلة للنكوص ، بل هو زمن انطولوجي بامتياز، زمن «بارمنيدي» ، مساو لنفسه دائماً ، لا يتغير ولا ينفد . في كل عيد دوري يكون استرجاعُ لنفس الزمان المقدس ، الزمان الذي تجلّى في عيد السنة الماضية أو في العيد الذي انقضى عليه قرن كامل ، وهو الزمان الذي خلقته وقدسته الآلهة عندما ابتدته أول مرة ، وهي نفس البادرة التي تتحين في العيد . بعبارة أخرى ، يكون في العيد استرجاعُ لأول ظهور من الزمان المقدس كما حدث في الأصل ، «في ذلك الزمان» . ذلك لأن الزمان المقدس الذي يجري فيه العيد لم يكن له وجود قبل «البوادر» الإلهية التي يجري احياء ذكرها في العيد . فالآلهة اذ خلقت انواعاً مختلفة من الواقع التي يتألف منها عالمنا اليوم ، قد أسست ايضاً للزمان المقدس ، من حيث ان الزمان الذي يعاصر فعلاً من افعال الخلق لهو بالضرورة زمان قدسه حضور الفعالية الإلهية فيه .

على هذا النحو يعيش الإنسان الديني في نوعين من الزمان ، اهمهما هو الزمان المقدس ، الذي يتبدى تحت المظهر المفارق من الزمان الدائري الذي يقبل النكوص والاسترجاع ، أي انه نوع من الحاضر الأزلي الميطيقي يمكن ان يلججه الإنسان دورياً بواسطة الطقوس . هذا الموقف من الزمان كاف لتمييز الإنسان الديني من الإنسان غير الديني : الأول يأبى على نفسه ان يعيش حصراً فيما صار يعرف في المصطلح الحديث بـ «الحاضر التاريخي» ؛ فهو يسعى إلى

ان ينضم إلى زمن مقدس يمكنه، من نواحٍ معينة، ان يشاكل «الأزل».

ولعله يصعب علينا أن نبيّن في كلمات قليلة ما هو الزمان بالنسبة للإنسان غير الديني الذي يعيش في المجتمعات الحديثة. ليس في نيتنا أن نتكلم على الفلسفات الحديثة المتعلقة بالزمان، ولا عن المفاهيم التي يستخدمها العلم المعاصر في بحوثه الخاصة. ليس في نيتنا أن نعقد مقارنة فيما بين أنظمة الفكر أو فيما بين المذاهب الفلسفية، بل فيما بين مواقف وجودية، بل كل ما نستطيع قوله هو أن الإنسان غير الديني هو أيضاً يعرف نوعاً من انقطاع الزمان وتناثره. بالنسبة إليه هو أيضاً، بالإضافة إلى زمن العمل الذي يجري على وتيرة واحدة نوعاً ما، يوجد زمن آخر هو زمن المباهج والاستعراضات، «زمن الأعياد». فهو أيضاً يعيش وفقاً لإيقاعات زمانية متنوعة، ويعرف أزمنة متفاوتة الشدة، وذلك عندما يصنفي إلى موسيقاه المفضلة، أو عندما يحب ويتشغل لقاء المحبوب. عندئذ يحس إيقاعاً زمانياً مختلفاً عن الزمان الذي يشتغل فيه أو الزمان الذي يشعر فيه بالضجر.

لكن بالنسبة للإنسان الديني ثمة فرق أساسي، إذ أن هذا الأخير يعرف هُنَياتٍ «مقدسة» لا تشترك في الزمان الدنيوي الذي يسبقها ويليهها، هُنَيات لها بنية مغايرة كلياً، و«أصل» مختلف، هو الزمان البُدْئي، الذي قدسته الآلهة، والقابل لأن يصير حاضراً بواسطة العيد. بالنسبة للإنسان غير الديني، هذه الصفة التي تتجاوز الإنسان ويتصف بها الزمان الليثورجي شيء لا يمكن بلوغه. بالنسبة للإنسان غير الديني، ليس في الزمان انقطاع ولا ينطوي على «سر»؛ فهو يشكل

اعمق ابعاد وجود الإنسان ، وهو مرتبط بوجوده بالذات ، وهو بالتالي له بداية ونهاية ، ألا وهي الموت ، انقضاء الوجود . مهما كثرت الإيقاعات الزمانية التي يحسها ، ومهما اختلفت شدة هذه الإيقاعات ، يعلم الإنسان الديني ان الأمر يتعلق دائماً بخبرة بشرية لا يمكنها ان تنطوي على حضور إلهي من أي نوع .

اما بالنسبة للإنسان الديني فالزمان الدنيوي قابل لأن «يتوقف» دورياً ، اذ يندرج فيه زمان مقدس بواسطة الطقوس ، زمان غير تاريخي (بمعنى انه لا يتسبب إلى الزمن الحاضر التاريخي) . وكما ان الكنيسة تشكل انقطاعاً في مستوى المكان الدنيوي من مدينة حديثة ، كذلك تسم الخدمة الدينية التي تجري في نطاقها علامة على انقطاع في الديمومة الزمانية الدنيوية : انه لم يعد ذلك الزمن التاريخي الراهن الذي يعاش في الشوارع والبيوت المجاورة ، بل الزمان الذي يجري فيه الوجود التاريخي ليسوع المسيح ، الزمان الذي تقديس بدعوته وآلامه وموته واتبعائه . ومع ذلك فإن هذا المثال لا يلقي الضوء على كل الفرق القائم بين الزمن الدنيوي والزمن المقدس ؛ بالنسبة للديانات الأخرى ، جددت المسيحية خبرة الزمان الليتورجي ومفهومه في اثباتها تاريخية شخص يسوع المسيح . بالنسبة للمؤمن ، تتطور الليتورجية في زمن تاريخي قدسه تجسد ابن الله . ان الزمان المقدس الذي يتحين دورياً في الديانات التي سبقت المسيحية (وخصوصاً الديانات القديمة) هو زمان مبطيء ، بذئي ، لا يتواحد مع ماض تاريخي ، زمان اصلي بمعنى انه انبثق «فجأة» ، لم يكن مسبوقاً بزمان آخر ، لأنه ما من زمان يمكن ان يوجد قبل ظهور الحقيقة التي ترويها الأسطورة .



هذا المفهوم القديم للزمان الميطقي هو ما يهمنا قبل كل شيء. ولسوف نرى فيما بعد الفروق بينه وبين مفهومه في اليهودية والمسيحية.

## تمبلوم - تمبوس (المعبد - الزمان)

نعرض الآن بعض الوقائع التي تكشف لنا على الفور عن مسلك الإنسان الديني تجاه الزمان. من الملاحظات الأولية ذات الأهمية أننا نجد في كثير من لغات الأهالي الأصليين في اميركا الشمالية ان الكلمة التي تدل على «العالم» (= الكون cosmos) تُستخدم ايضاً للدلالة على «السنة». فإذا اراد اليوقوت Yokut مثلاً أن يقولوا إن «سنة انقضت» قالوا: «العالم مضى». وعند اليوكي Yuki تتعين «السنة» بلفظة «الأرض» أو «العالم». فإذا قالوا: «مضت الأرض» فمعنى ذلك عندهم ان «عاماً مضى». فالمفردات اللغوية تكشف عن صلة دينية وثيقة بين العالم والزمان الكوني. والكون وحدة حية تولد وتنمو وتموت في آخر يوم من السنة، لكي تعود فتولد ثانية في العام الجديد. ولسوف نرى ان هذه الولادة الثانية هي ولادة يولدها الكون في كل سنة، لأنه في كل عام جديد يبدأ الزمان بدءاً جديداً.

هذه الوحدة الكونية - الزمانية هي من طبيعة دينية: الكون مماثل للزمان الكوني (ال «سنة»)، لأن احدهما كالآخر حقيقة مقدسة، خلق إلهي. وتظهر هذه الوحدة الكونية - الزمانية عند بعض الأهالي في اميركا الشمالية في نفس تكوين المباني المقدسة. بما ان المعبد يمثل

صورة العالم، فهو ينطوي أيضاً على رمزية زمانية. وهذا ما نجده، مثلاً، عند قبائل الغونكان والسيوكس. فالكوخ المقدس عندهم، فضلاً عن تمثيله للعالم، يرمز أيضاً إلى السنة. ذلك لأن السنة عندهم تعتبر طريقاً إلى الجهات الأصلية الأربع؛ يفسر ذلك النوافذ الأربع والأبواب الأربعة التي نجدها في الكوخ المقدس. ويقول الداكوتا إن «السنة عبارة عن دائرة حول العالم»؛ أي حول كوخبهم المقدس من حيث هو صورة للعالم<sup>(١)</sup>.

وفي الهند مثال، بُعد، أوضح. رأينا كيف إن تبشيد مذبح عندهم يساوي تكراراً لخلق العالم. وتضيف النصوص أن هيكل النار هو السنة، وهي بهذا المعنى تفسر رمزيته الزمانية: الستون والثلاثمائة قمرية التي يتألف منها السراج تناظر الستين والثلاثمائة ليلة من السنة، والستون والثلاثمائة قمرية التي يتألف منها «الياجوسماني» تناظر الستين والثلاثمائة نهار (ساتاباتا براهمانا ١٠، ٥، ٤، ١٠ الخ.).

بعبارة أخرى، كلما بُني هيكل ناري لا يعاد خلق العالم وحسب، وإنما «تُبنى السنة» أيضاً؛ يُولد الزمان ثانية إذ يُخلق خلقاً جديداً. من ناحية ثانية، تُشبه السنة بـ «براجباتي»، الإله الكوني. يترتب على ذلك أن «براجباتي» يعود إلى الحياة ثانية، أي تشتد قداسة العالم، مع كل هيكل جديد. إن الأمر لا يتعلق بالزمان الدنيوي، بمجرد الديمومة الزمانية، بل بتقديس الزمان الكوني. القصد من إقامة هيكل النار هو تقديس العالم، وبالتالي اندراجه في الزمان المقدس.

(١) WERNER MÖLLER, Die blaue Hütte (Wiesbaden, 1954), P. 133

في هيكل اورشليم نجد رمزية زمانية مشابهة تندرج في نطاق الرمزية الكوسمولوجية. يقول فلافيوس يوسفوس: الأرغفة الاثنا عشر التي توضع على المائدة تعني اشهر السنة الاثني عشر، والشمعدان ذو السبعين شعبة يمثل «العشرّيات» (اي تقسيم قبة الفلك المؤلفة من سبعة كواكب كل منها إلى عشرة). والمعبد هو صورة العالم: باعتباره موجوداً في «مركز العالم»، في اورشليم؛ وبذلك لا يتقدس الكون كله وحسب، وإنما «الحياة» الكونية ايضاً، أي الزمان.

يرجع الفضل إلى هرمان اوستر من حيث إنه أول من فسر الصلة الإيتيمولوجية بين *templum* و *tempus*، اذ فسر هذين الاصطلاحين انطلاقاً من مفهوم التقاطع (*Schneidung* و *Kreuzung*)<sup>(1)</sup>. وقد أبدت البحوث الأخيرة هذا الاكتشاف: «تمبلوم» يدل على الجانب المكاني و«تمبوس» على الجانب الزماني من حركة الأفق في المكان والزمان<sup>(2)</sup>.

ويبدو ان المغزى العميق لكل هذه الوقائع هو التالي: بالنسبة للإنسان الديني من الثقافات القديمة، العالم يتجدد سنوياً؛ بعبارة أخرى، يستعيد في كل سنة جديدة «قداسته» الأصلية، التي كانت له عندما خرج من يدي الخالق. هذه الرمزية نجدها ظاهرة بوضوح في البنية المعمارية للمحارم القدسية. لأن المعبد هو في الوقت نفسه المكان المقدس بامتياز وصورة العالم، يقدس الكون كله ويقدس

---

(1) H. usener, *Götternamen* (2 nd., Bonn, 1920), P. 181 sq.

(2) Werner Müller, *Kreis und Kreuz* (Berlin, 1938); P. 38; cf aussi PP. 33 sq.

الحياة الكونية ايضاً. وقد كان الإنسان القديم يتخيل هذه الحياة الكونية على هيئة مسار دائري، متواحد مع السنة. وكانت السنة دائرة مغلقة: كان لها بداية وكان لها نهاية، لكن كان لها ايضاً هذه الخصوصية التي تستطيع بواسطتها ان «تولد ثانية» في هيئة سنة جديدة. مع كل سنة جديدة يظهر إلى الوجود زمان «جديد»، «ظاهر»، «قُدُس»، من حيث انه لم يُستعمل بعد.

لكن الزمان كان يولد ثانية، ويبدأ من جديد، لأن العالم كان يخلق من جديد في كل سنة جديدة. كنا بينا في الفصل السابق ما للأسطورة الكوسموغونية من اهمية عظيمة، بما هي النموذج المثالي لكل نوع من الخلق ولكل نوع من البناء. ونضيف الآن ان خلق الكون ينطوي ايضاً على خلق الزمان. اكثر من هذا: بما ان خلق العالم (الكوسموغونيا) هو النموذج البدئي أو الأصلي لكل «خلق»، كان الزمان الكوني الذي انبثق عن خلق العالم هو النموذج المثالي لكل الأزمنة الأخرى، أي الأزمنة النوعية لمختلف طوائف الموجودات. نوضح ذلك: عند الإنسان الديني من الثقافات القديمة، كل خلق، كل وجود، انما يبدأ في الزمان: قبل ان يوجد الشيء، لا يمكن ان يوجد له وقته. قبل ان يأتي الكون إلى حيّز الوجود، لم يكن ثمة زمان كوني. قبل ان يخلق هذا النوع من النبات، لم يكن موجوداً الزمان الذي يجعله يطلع الآن ويشمر ثم يذوي. ولهذا السبب كان التصور ان كل شيء دائماً جرى في بداية الزمان، في البدء. وانما انبثق الزمان مع أول ظهور لطائفة جديدة من الموجودات. وهذا يفسر لنا لماذا

تلعب الأسطورة مثل هذا الدور البالغ الأهمية . وكما سوف نبين فيما بعد ، ليس كالأسطورة ما يكشف لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود .

## التكرار السنوي لخلق العالم

والأسطورة الكوسموغونية هي الأسطورة التي تحكي لنا كيف جاء الكون إلى الوجود . في بابل ، في اثناء مهرجانات اكيـتو Akitu ، وكانت تجري في الأيام الأخيرة من العام ، وفي الأيام الأولى من العام الجديد ، كانت تتلى بخشوع «قصيدة الخلق» ، اينوما ايليش . بالتلاوة الطقسية يتحین القتال بين مردوك وهؤلـة البحر ، تيامات ، وهو القتال الذي جرى «في الأصل» ، ووضع حدّاً للعماء بعدما احرز الإله نصره النهائي . وكان مردوك خلق الكون من جثة تيامات الممزقة وخلق الإنسان من دم الشيطان كينغو Kingu ، حليف تيامات الرئيسي . هذا ، وإن الطقوس والصيغ كان يُنطق بها في اثناء الاحتفال لتعطينا الدليل على ان احياء ذكرى الخلق كان بالفعل تحييناً للفعل الكوسموغوني .

كانت محاكاة القتال بين تيامات ومردوك تتخذ هيئة صراع بين فريقين من المشخصين ، وكانت تجري دائماً في نطاق مشاهد درامية تُمثل في رأس السنة الجديدة . وانا لنجد مثل هذا الاحتفال عند الحثيين والمصريين والكتعمانيين (رأس شمرا) . فقد كان الصراع الذي كان يجري بين طائفتين من المشخصين يكرر العبور من العماء Chaos إلى الكون Cosmos ، ويُحین فعل خلق الكون ، فما يلبث الحدث الميطقي حتى يعود فيصير حدثاً حاضراً . «لعلّ (مردوك) يقهر

تيامات ويقصّر أيامه»، هكذا كان يدعو متولّي الاحتفال. القتال والنصر والخلق - كل هذا قد حدث في هذه اللحظة بالذات.

ينطوي العام الجديد، بما هو تحيين لخلق الكون، على استرجاع الزمان في بدايته، أي على تجديد الزمان البدئي، الزمان «الطهور»، الذي كان موجوداً في لحظة الخلق. لذلك كانت تجري، بمناسبة العام الجديد، اعمال «التطهير» (من الذنوب)، وتُطرد الخطايا والشياطين، ويؤدّى الاحتفال بكبش الفداء. ذلك لأن الأمر لا يتعلق بتوقف فعلي لحقبة زمنية معينة وبداية حقبة أخرى وحسب (كما يتخيل ذلك إنسان حديث مثلاً)، وإنما بإلغاء العام الماضي والزمان المنقضي. وتعني التطهيرات الطقسية: ابقاد نار، محو الخطايا والذنوب التي يرتكبها الفرد والجماعة، لا مجرد «تطهير».

النوروز، أو النيروز - العام الجديد الفارسي - يُحى ذكرى اليوم الذي حدث فيه خلق العالم للإنسان. في يوم النوروز يتم «تجديد الخلق» كما عبر عن ذلك المؤرخ العربي، البيروني. كان الملك يعلن في يوم النوروز: «هوذا يوم جديد في شهر جديد في عام جديد: يجب تجديد ما أثبأ الزمان. فالزمان قد أبلى الكائن البشري والمجتمع والكون. ان هذا الزمان المدمر هو الزمان الدنيوي، أي الدهر بالمعنى الخاص للكلمة، هذا الزمان يجب إبطاله لكي تستعاد اللحظة الميطيقية التي جاء فيها العالم إلى الوجود، مستحماً في زمان «طهور»، «قوي»، مقدس. كان إبطال ماضي الزمان الدنيوي يتم بواسطة طقوس تعني نوعاً من «نهاية العالم»: إطفاء النيران، رجوع ارواح الموتى، الفوضى الاجتماعية من نوع اعياد زحل، الترخّص

الجنسي، التَهْتِك، الخ. كل هذا كان يرمز إلى انكفاء الكون في العماء. وفي آخر يوم من العام ينحلّ العالم في المياه البدئية. هُوْلَة البحر تيامات رمز الظلمات، وما ليس له شكل، وغير المتجَلّي، يُبعث إلى الحياة من جديد، ويصبح خطراً ماثلاً. العالم الذي وُجد طَوَالَ عام كامل يتلاشى فعلاً. وبما ان تيامات قد عاد إلى الوجود، والكون لم يعد موجوداً، تَعَيَّن على مردوك ان يعيد خلق العالم ثانية، بعد ان يقضي على تيامات ثانية.

هذا النكوص الدوري الذي ينكفيء فيه العالم إلى الحالة العمائية يعني محو جميع «خطايا» العالم وكل ما أبلاه الزمان أولونه، بالمعنى الفيزيائي للكلمة. والإنسان، اذ يشترك رمزياً في محور الخطايا وفي تجديد خلق العالم، يُخلق هو أيضاً من جديد؛ يولد من جديد لأنه بدأ وجوداً جديداً. يحس نفسه مع كل عام جديد انه اكثر حرية وأكثر طهرًا، لأنه تحلل من عبء اخطائه وذنوبه. واستعداد الزمان الأسطوري الذي حصل فيه الخلق، وبالتالي الزمان «المقدس»، الزمان «القوي»: مقدس لأنه تغير بحضور الآلهة؛ وقوي لأنه اقتصر على الخلق الأعظم الذي حصل في وقت ما، وهو خلق العالم. رمزياً، يعود الإنسان فيصبح معاصراً لنشأة الكون، حاضراً في فعل خلق العالم. بل انه، في الشرق الأدنى القديم، يشترك اشتراكاً فعلياً في فعل الخلق (يرجع إلى طائفتي المشخصين اللتين تمثلان الصراع بين مردوك وتيامات).

اصبح من اليسير علينا ان نفهم لماذا الإنسان الديني تسكنه ذكرى هذا الزمان المهيب، ولماذا يحاول دورياً استرداده: في ذلك

الزمان، كانت برهنت الالهة عن ذروة قدرتها. فولادة الكون هي التجلي الإلهي الأعلى، وبادرة القوة المثالية، والوفرة والإبداع. والإنسان الديني ظمىء إلى الحقيقي: يحاول بجميع ما لديه من وسائل ان يقيم نفسه في ينبوع الحقيقة الأولى، عندما كان العالم في حالة المخاض.

## تجدد الولادة بالعودة إلى الزمان الأصلي

كل هذا يحتاج منا إلى مزيد تفصيل، لكن ثمة عنصران يجب ان يستائرا باهتمامنا حالياً:

- ١ - بتكرار ولادة الكون سنوياً، تتجدد ولادة الزمان ويعود إلى بدايته الأولى باعتباره زماناً مقدساً، وقديسته آتية من تزامنه مع «ذلك الزمان» الذي جاء فيه العالم إلى الوجود أول مرة.
- ٢ - الإنسان، اذ يشترك طقسياً في «نهاية العالم» وفي «تجدد خلقه»، يصبح معاصراً لـ «ذلك الزمان»، وبالتالي يولد ولادة جديدة، ويعود إلى بداية وجوده مع ذلك الاحتياطي من القوى الحيوية دون ان يَمَسُّها شيء، مثلما كانت في لحظة ولادته.

ان اهمية هذه الوقائع متأتية من كونها تكشف لنا عن سر مسلك الإنسان الديني تجاه الزمان. بما ان الزمان المقدس القوي هو «زمن الأصل»، هو اللحظة الخارقة التي خلقت فيها حقيقة ما وتجلت فيه اول مرة بكل امتلائها، يجهد الإنسان لكي يدرك هذا الزمن الأصلي بصورة دورية. هذا التحيين الطقسي للزمن الأصلي الذي



ظهرت فيه حقيقة ما اول مرة هو في اساس جميع التقاويم المقدسة :  
فالعيد ليس «احياء ذكرى» حَدَثٍ مِيطِيقِي (وبالتالي ديني)، بل هو  
تحيين له .

ان زمن الاصل بامتياز لهو زمن ولادة الكون، هو اللحظة التي  
ظهرت فيها إلى الوجود الحقيقة الأرحب، العالم . وكما رأينا في  
الفصل السابق، لقد كان هذا هو السبب في اتخاذ خلق الكون  
النموذج المثالي لكل «خلق» ولكل نوع من «الفعل» . ولنفس السبب  
ايضاً كان اتخاذ الزمان الكوسموغوني نموذجاً لكل الأزمنة المقدسة :  
ذلك أنه إن كان الزمن المقدس هو الزمن الذي تجلّت فيه الالهة  
وقامت فيه بفعل الخلق، فإن من البديهي ان يكون اتم تجلٍ إلهي  
وأضخم فعل من افعال الخلق هو «خلق العالم» .

الإنسان الديني، اذن، يُحيّن خلق العالم، لا في كل مرة  
«يخلق» فيها شيئاً («عالمه الخاص به» - البلاد التي يعيش فيها -  
المدينة، البيت، الخ .) وحسب، وانما ايضاً عندما يريد ان يضمن  
حكماً سعيداً لسلطان جديد، أو عندما يكون عليه ان ينقذ المحاصيل  
من خطر يتهدها، أو يشن حرباً مظفرة، أو يرسل بعثة بحرية، الخ .  
لكن التلاوة الطقسية للميطيقا الكوسموغونية تلعب بصورة خاصة دوراً  
كبيراً في الشفاء من الأمراض اذ تتجدد فيها ولادة الكائن البشري . في  
فيجي، يُدعى الاحتفال بتنصيب سلطان أو حاكم جديد، يُدعى «خلق  
العالم»، ويتكرر نفس الاحتفال لإنقاذ المواسم المعرضة للخطر .  
وربما كانت بولينيزيا هي المكان الذي نجد فيه اوسع تطبيق طقسي  
للميطيقا الكوسموغونية . فالكلمات التي نطق بها «أيو» «في ذلك»

الزمان» من اجل خلق العالم قد اصبحت صيفاً طقسية، يكررها الناس في مناسبات كثيرة: لإخصاب رحم عقيمة، للشفاء من الأمراض (الجسمانية والنفسية)، للاستعداد للحرب، بل وفي ساعة الموت أو لاستشارة الإلهام الشعري.

الأسطورة الكوسموغونية عند اهالي بولينيزيا هي بمثابة نموذج بذني لجميع انواع «الخلق»، بصرف النظر عن الصعيد الذي يجري فيه: بيولوجي، سيكولوجي، روحي. لكن، بما ان التلاوة الطقسية للأسطورة الكوسموغونية تنطوي على تحيين لهذا الحدث البذني، ينتج عن ذلك ان من تتلى لأجله يُقدف به سحرياً إلى «بداية العالم»، ويصبح معاصراً لولادة الكون. ان الأمر بالنسبة اليه عودة إلى زمن الأصل، والهدف الشفائي من ذلك ان يبدأ الوجود مرة أخرى، ان يولد (رمزياً) من جديد. ويبدو ان المفهوم الضمني لهذه الطقوس الشفائية هو التالي: لا يمكن اصلاح الحياة أورأبها، بل اعادة خلقها فقط عن طريق التكرار الرمزي لخلق العالم، لأن خلق العالم هو النموذج المثالي لكل خلق.

ولعلنا نستطيع ان نفهم الوظيفة التجديدية التي تنصف بها العودة إلى «زمن الأصل» فهماً أفضل اذا درسنا عن كتب علم الشفاء القديم، كما هو مثلاً عند الـ «نا - خي» NA - KHI، واهل التيب وبرمانيا الذين يعيشون في الجزء الجنوبي الغربي من الصين (مقاطعة يونان) هنا، يتألف طقس الشفاء تحديداً من تلاوة خاشعة لأسطورة خلق العالم، تعقبها تلاوة اساطير اصل الأمراض (التي يستثيرها غضب الشعبين) وظهور أول شاماني (= انسان يتمتع بقدرات خارقة)

متطّلب يأتي الناس بالأدوية الضرورية . جميع الطقوس تقريباً تستحضر البداية ، أي الزمن الميطيقي الذي كان فيه العالم لم يزل غير موجود : «في البدء ، حين لم تكن قد ظهرت بعد إلى الوجود السموات والأرض والقمر والنجوم والكواكب ، حين لم يكن شيء قد ظهر بعد ، الخ» . يلي ذلك خلق العالم وظهور الثعابين : «في الوقت الذي ظهرت فيه السماء ، وأشعت أنوار الشمس والقمر والنجوم والكواكب وظهرت الأرض . حين ظهرت الجبال والأودية والأشجار وظهرت الصخور ، في هذه اللحظة ظهرت الـ «ناغا» والثناين ، الخ .» ثم تتلى اسطورة اول شفاء وظهور الأدوية . ثم يضاف : «يجب ان تُروى (اسطورة) اصل الدواء ، وإلا لا يجوز التكلم عنه»<sup>(1)</sup> .

ما يهمنا ابرازه في التلاوات السحرية ذات الغرض العلاجي هو أن الاسطورة التي تحكي اصل الدواء مجسدة دائماً في الاسطورة الكوسموغونية . في الشفائيات البدائية والتقليدية ، لا ينجع العلاج الا ان يذكر اصله طقسياً امام المريض . في الشرق الأدنى وفي اوربا عدد كبير من التلاوات تشتمل على تاريخ المرض أو الشيطان الذي أهاجه ، وعلى استدعاء اللحظة المييطيقية التي أفلح فيها إله أو إنسان مقدس في قهر المرض . وتكمن الفعالية الشفائية للتلاوة في انها ، اذ يُنطق بها طقسياً ، تحيّن الزمن المييطيقي ، اي زمن الأصل ، بمقدار ما تحيّن اصل العالم وأصل المرض ومداواته .

(1) J. F. Rock, The Na - Khl N āga Cult and related Ceremonies (Rome, 1952) Vol. 1, PP, 108, 197, 279 sq.

## زمان الأعياد وبثيتها

ان زمن الأصل الذي ظهرت فيه حقيقة ما اول مرة له قيمة ووظيفة نموذجيتان ؛ ولذلك يسعى الإنسان إلى تحيينه دورياً بواسطة ما يناسب من الطقوس . لكن «الظهور الأول» لحقيقة ما يساوي «خلقها» من قبل الكائنات الإلهية أو شبه الإلاهية ؛ ولذلك كانت استعادة «زمن الأصل» تنطوي على فعل الخلق الذي قامت به الآلهة . والتحيين الدوري لما قامت به الآلهة من افعال الخلق في «ذلك الزمان» هو ما يشكل التقويم (الرزنامة) المقدس، اي مجموعة الأعياد . وليس كاستعادة الزمن الأصلي المقدس ما يميز سلوك الإنسان في اثناء العيد من سلوكه قبله أو بعده . لكنه في العيد كثيراً ما يُسلم نفسه إلى نفس الأعمال التي يقوم بها في الأيام العادية ؛ وهذا على خلاف الإنسان الديني الذي يعتقد انه يعيش في زمان آخر، وأنه افلح في استعادة «ذلك الزمان» الميطيقي .

في المراسم الطوطمية السنوية التي تجري في أستراليا، تقوم قبيلة الأورونطا بسلوك نفس المسار الذي سلكه سلفها الميطيقي في «زمن الحلم» . يتوقفون حيث توقف السلف، ويكررون نفس الحركات التي قام بها «في ذلك الزمان» ، ويصومون طوال مدة الرحلة، لا يحملون سلاحاً ولا يقاربون النساء، ولا يتصلون بأفراد من قبائل أخرى . يغيصون تماماً في «زمن الحلم»<sup>(1)</sup>.

(1) F.J. Gillen, The native Tribes of Central Australia (2nd ed., Londres, 1938) P. 170 sq.

وفي الأعياد التي تحتفل بها، في كل سنة، جزيرة تيكوبيا البولينية، تُكرّر «أعمال الآلهة»، أي نفس الأفعال التي بواسطتها قامت الآلهة، في الأزمنة الميثيقية، بتحديد قسّمات العالم على النحو الذي نجده عليه اليوم<sup>(1)</sup>. ويتصف زمن الأعياد الذي يقضيه الناس في المراسم باجتناب بعض المحرمات كالضوضاء الزائدة واللعب والرقص. ويتم العبور طقسياً من الزمن الديوي إلى الزمن المقدس بشطر قطعة من خشب إلى شطرين. هذا ولا تتميز الاحتفالات الكثيرة التي تتألف منها الأعياد الدورية، التي ما هي إلا تكرار للبوارد النموذجية التي ابتدتها الآلهة - لا تتميز ظاهرياً من الأفعال العادية: إصلاحات طقسية للقوارب، أداء الطقوس المتعلقة بزراعة النباتات الغذائية، تشييد المقادس. لكنها في الحقيقة تتميز من الأعمال التي تُؤدّى في الزمن العادي من حيث أنها لا تتعلق إلا ببضعة أشياء تشكل نوعاً النموذج البدئي لكل منها، فضلاً عن أنها تجري في جوّ مشبع بالقداسة. ثم إن السكان الأصليين يعلمون أنهم إنما يكررون نفس الأفعال النموذجية التي قامت بها الآلهة وفي ذلك الزمان».

هكذا يصبح الإنسان الديني معاصراً للآلهة بصورة دورية بمقدار ما يُحيّن الزمان البدئي الذي تمت فيه الأعمال الإلهية. في مستوى الحضارات «البدائية»، لكل ما يعمل الإنسان نموذجه الذي يتعدّى الحدود البشرية؛ حتى وهو خارج زمن الأعياد، تحاكي أعماله

(1) Cf. Raymond Firth, *The Work of Gods in Tikopia* (Londres, 1940).

النماذج المثالية التي رسخها الآلهة والأسلاف الميطيقيون . لكن هذه المحاكاة تقع تحت محذور الابتعاد عن الصواب مع مرور الزمان؛ النموذج معرض للنشوء أو حتى للنسيان . ان التحيينات الدورية للبواذر الإلهية ، والأعياد الدينية ، ماثلة ابداً لكي تعلّم الناس من جديد قدسية النماذج . فالرأب الطقسي للقوارب ، أو الزراعة الطقسية لليام Yam ، لا يعود يشبه العمليات المماثلة التي تجري خارج الأوقات المقدسة ، بل تصبح أكثر دقة وقرباً من النماذج الإلهية ، وبالتالي افعالاً طقسية ، القصد منها قصد ديني . وانما يجري اصلاح القارب طقسياً لا لأنه بحاجة إلى إصلاح ، بل لأن الآلهة علّمت الناس في العصر الميطيقي كيف يصلحون القوارب . اذا الموضوع لم يعد يتعلق بعملية تجريبية ، بل بفعل ديني ، بمحاكاة الآلهة imitatis dei . لم يعد اصلاح القارب واحداً من جملة موضوعات تندرج تحت صنف «القوارب» ، بل نموذج ميطيقي : نفس القارب الذي أصلحته الآلهة «في ذلك الزمان» . يترتب على ذلك ان الزمان الذي يتم فيه اصلاح قارب طقسياً ينضم إلى الزمان البذني ، هو نفس الزمان الذي كان يعمل فيه الآلهة .

طبعاً ، لا يمكن ان ترتد جميع انواع الأعياد الدورية إلى المثال الذي درسناه توّاً لكن ما يهمنا هنا ليس هو مورفولوجية (هيئة) الأعياد ، بل بنية الزمان المقدس المُحيّن فيها . ويمكن القول ان الزمن المقدس هو نفسه دائماً ، وأنه «تعاقب أزليّات» (هوبرت وماوس) . مهما بلغت تعقيدات العيد الديني ، فهو دائماً يتعلق بحدث مقدس حدث «في الأصل» ، ويمكن جعله في الحاضر بواسطة الطقس . والمشاركون فيه يصبحون معاصرين للحدث الميطيقي . بعبارة أخرى ، «يخرجون» من

زمانهم التاريخي - اي من الزمان الذي تكوّنهُ جملة الحوادث  
الدنيوية، الشخصية وما بين الشخصية، وينضمّون إلى الزمان  
البشري، الذي هو نفسه دائماً، الذي يرجع إلى الأزلية. الإنسان  
الديني ينفذ دورياً إلى الزمان الميطقي المقدس، ويستعيد الزمان  
الأصلي، ذلك الزمان الذي «لا يجري»، لأنه لا يشترك في الزمان  
الدنيوي، انما يكونه حاضر أزلي قابل للاسترداد بلا حدود.

يحس الإنسان الديني الحاجة إلى الانغماس دورياً في هذا  
الزمان المقدس الذي لا يمكن تحطيمه. وعنده ان الزمان المقدس هو  
الذي يجعل من الزمن الآخر العادي، أي الزمان الدنيوي الذي يجري  
فيه كل الوجود البشري، أمراً ممكناً. وهو الحاضر الأزلي الذي جرى  
فيه الحدث الميطقي، الحاضر الذي جعل من الزمان الدنيوي الذي  
تجري فيه الحوادث التاريخية أمراً ممكناً. ومثال ذلك الزواج المقدس  
الإلهي الذي حدث «في ذلك الزمان»، هذا الزواج هو الذي جعل من  
الاتحاد الجنسي بين الرجال والنساء أمراً ممكناً. والاتحاد بين الإله  
والإلهة جرى في لحظة غير زمانية، في حاضر أزلي. اما الاتحاد  
الجنسي بين بني البشر، فإن جرى خارج الطقس، فإنما يجري في  
الزمان الدنيوي. ثم ان الزمان المقدس الميطقي يؤسس للزمان  
الوجودي التاريخي بما هو نموذج المثالي. وملاك القول انه بفضل  
الكائنات الإلهية أو شبه الإلهية جاء كل شيء إلى حيّز الوجود. ان  
اصل جميع الحقائق، بل والحياة نفسها، اصل ديني. وعلى هذا،  
صار بالامكان ان يُزرع ويؤكل الـ «يام» بصورة «عادية»، لأنه يزرع  
ويؤكل بصورة طقسية. وإنما امكن القيام بهذه الطقوس لأن الآلهة

أوحى بها «في ذلك الزمان»، بخلقها الإنسان والـ «يام»، وإظهار الناس على طريقة زرع هذا النبات الغذائي وأكله.

في العيد يُستعاد البعد المقدس من الحياة بكل امتلائه، وتختبر قدسية الوجود الإلهي بما هو خلق إلهي. أما في غير العيد فالإنسان عُرضة دائماً إلى نسيان ما هو أساسي. إن الوجود لا يُعطى مما يسميه الإنسان الحديث «طبيعة»، بل لأنه خليفة الآخرين، آلهة أو كائنات شبه إلهية. على العكس، الأعياد تعيد إلى الوجود بعده المقدس، وتذكر الإنسان كيف خلقته الآلهة أو الأسلاف الميطيقيون، وعلمته مختلف أنماط السلوك الاجتماعي والأشغال التطبيقية.

من وجهة نظر معينة، قد يبدو هذا «الخروج» الدوري من الزمن التاريخي، وخصوصاً من الآثار التي يرتبها على الإنسان الديني الوجود في مجمله، قد يبدو رفضاً للحرية المبدعة. لكن الأمر يتعلق عموماً بالعود الأبدي «إلى ذلك الزمان»، إلى ماضٍ ميطيقي لا يَمُتُ بصلة إلى ما هو تاريخي. يمكننا الاستنتاج أن هذا التكرار الأبدي للبواذر النموذجية التي أوحى بها الآلهة «في الأصل» تتعارض مع كل تقدم إنساني وتشل منه كل عفوية مبدعة. وهذا الاستنتاج له ما يبرره جزئياً. أقول: جزئياً فقط، لأن الإنسان الديني، حتى الأكثر «بدائية»، لا يرفض «التقدم» من حيث المبدأ: يقبله لكن بإكسابه أصلاً وُعداً إلهيين. كل ما يبدو لنا، في المنظور الحديث، علامة من علامات «التقدم» (مهما كانت طبيعته: اجتماعية أو ثقافية أو تقانية، الخ.)، قياساً على وضع سابق، قد اعتبرته مختلف المجتمعات البدائية، على مدى تاريخها الطويل، ضرورياً من الوحي الإلهي الجديد. حالياً، لن



نتناول هذا الجانب من المسألة ؛ ان ما يهمنا هنا هو ان نفهم المغزى الديني الذي ينطوي عليه هذا التكرار للبوادر الإلهية . والحال ، يبدو بدهة أنه ، اذا كان الإنسان الديني يحس الحاجة إلى تكرار نفس البوادر النموذجية تكراراً لا حدود له ، فلأنه يتطلع ويحاول ان يعيش قريباً جداً من آلهته .

## معاصرة الآلهة دورياً

بينما في الفصل السابق ان الرمزية الكوسمولوجية للمعدن والمعابد والبيوت ذات صلة وثيقة مع فكرة «مركز العالم» . ويبدو لنا ان الخبرة الدينية التي تشتمل عليها رمزية المركز على النحو التالي : الإنسان يتطلع إلى ان يضع نفسه في مكان «منفتح على الأعلى» ، وعلى اتصال مع العالم الإلهي . وعنده ان الحياة قريباً من «مركز العالم» تعني ان يحيا أقرب ما يكون إلى الآلهة .

هذا ، وإننا لنجد نفس التطلع إلى القرب من الآلهة بتحليلنا لمغزى الأعياد الدينية . ان يستعيد الإنسان الديني الزمان المقدس معناه ان يصير «معاصراً للآلهة» ، وبالتالي ان يعيش في حضرتها ، حتى وإن كانت هذه الحضرة محجوبة بستار من الخفاء ، بمعنى انها غير مرئية دائماً . القصيدة التي أميط عنها اللثام في خبرة المكان والزمان المقدسين تبين عن رغبة في العودة إلى وضعية بدئية : الوضعية التي كان فيها الآلهة والأسلاف الميطيقيون حاضرين ، يخلقون العالم أو ينظمونه أو يعلمون الناس اسس الحضارة . هذه الوظيفة البدئية

بسابقة ميطيقية، بزمان «الأصل» وما حدث «في البدء».

وما حدث «في البدء» هو هذا: كانت فعاليات الكائنات الإلهية أو شبه الإلهية تتنامى على الأرض. والحنين إلى «الأصول» هو إذن حنين ديني. والإنسان يريد استعادة الحضور الفعال للآلهة، كذلك يريد أن يحيا في العالم غَضًّا، نقيًّا، «قويًّا»، مثلما خرج من يد الخالق. انه الحنين إلى «كمال البدايات» الذي يفسر إلى حد كبير العودة الدورية إلى ذلك الزمان. بالتعبير المسيحي يمكننا القول انه يتعلق بـ «الحنين إلى الفردوس»، على الرغم من ان السياق الديني والإيديولوجي، في مستوى الثقافات البدائية، يختلف كليًّا عنه في اليهودية - المسيحية. لكن الزمان الميطيقي الذي يحاول الإنسان الديني ان يُحيِّنه دورياً هو زمان تقدس بالحضور الإلهي، أو يمكننا القول ان التطلع إلى الحياة في الحضرة الإلهية، وفي عالم كامل (لم يكد يولد)، يتطابق مع الحنين إلى وضعية فردوسية.

وكما بيّنا من قبل، قد يبدو هذا التطلع لدى الإنسان الديني إلى ان يرجع القهقري دورياً، وهذا السعي إلى استعادة وضعية ميطيقية كانت في البدء، امرأ لا يُطاق، بل ومذلة، في عين إنسان حديث. ان هذا الحنين يُفضي لا محالة إلى تكرار مستمر لعدد محدود من البوادر ومن انماط السلوك. حتى نقطة معينة، يمكننا القول ان الإنسان الديني، خصوصاً إنسان المجتمعات «البدائية»، هو بامتياز إنسان أقعدته اسطورة العود الأبدي. قد يُغرى عالم النفس الحديث ان يتبيّن

وجود حقيقي وتاريخي ، والحنين إلى وضعية «فردوسية» ، لا شيء الا لأنها، وهي الوضعية الجنينية، لم تتحرر بعد تحراً كافياً من قبضة الطبيعة.

المشكلة اعقد من ان نتصدى لها هنا. هذا إلى انها خارجة عن نطاق بحثنا، لأنها تنطوي على مشكلة التضاد بين الإنسان الحديث والإنسان قبل الحديث. على ان من الخطأ الاعتقاد ان الإنسان الديني، إنسان المجتمعات البدائية والقديمة، يرفض الاضطلاع بمسؤولية وجود حقيقي. على العكس، فهو يضطلع بالمسؤوليات الجسام بكل شجاعة: مثلاً، التعاون على خلق الكون، خلق عالم خاص به، ضمان الحياة للحيوان والنبات، الخ. لكن الأمر يتعلق بنوع آخر من المسؤولية يختلف عن المسؤوليات التي تبدو لنا انها وحدها الحقيقية والمشروعة. انها مسؤولية على الصعيد الكوني، وهي مسؤولية تختلف عن المسؤوليات ذات الطابع الأخلاقي أو الاجتماعي أو التاريخي، التي هي وحدها المعروفة في المدنيات الحديثة. في منظور الوجود الديني، لا يعترف الإنسان بمسؤولية غير مسؤوليته تجاه نفسه وتجاه مجتمعه. وعنده ان العالم لا يشكل كوناً Cosmos بالمعنى المخصوص للكلمة، ولا وحدة حية مفصلة المعالم. ان العالم عنده ما هو إلا إجمالي الاحتياطات المادية والطاقات الفيزيائية الموجودة على كوكبه. والهم الأكبر عند الإنسان الحديث الا يستنفد موارده الاقتصادية بطريقة رعناء. لكن البدائي، وجودياً، يضع نفسه دائماً في السياق الكوني. فخيرته الشخصية لا تنفصها الأصالة ولا

عَوْدًا إلى موضوعنا المباشر: لا يحق لنا ان نفسر العودة الدورية إلى زمان الأصل المقدس على أنها رفض لعالم الواقع وهروب إلى الحلم والخيال. على العكس، هنا ايضاً يبرز الاستحواذ الأنطولوجي (= التعلق الشديد بالوجود)، هذه الخاصية الجوهرية عند إنسان المجتمعات البدائية والقديمة. ذلك ان التطلع إلى استرجاع زمن الأصل، هو تطلع ايضاً إلى استرجاع حضور الآلهة بمقدار ما هو استرجاع للعالم قوياً، جديداً، نقياً، مثلما كان في ذلك الزمان. ان هذا في نفس الوقت ظمأ إلى القدسي وحنين إلى الوجود. على الصعيد الوجودي، تُترجم هذه الخبرة على انها ثقة بالقدرة على ابتداء الحياة دورياً من جديد وبأقصى «الفرص» المتاحة. فهي ليست رؤية متفائلة إلى الوجود وحسب، وإنما هي انحياز كلي إليه. بهذه الأنماط من السلوك يعلن الإنسان الديني انه لا يؤمن الا بالوجود، وان اشتراكه في الوجود انما يضمنه له الوحي البدئي الذي هو الحارس عليه. وجماع الوحي البدئي انما شكّلته اساطيره.

## الأسطورة = النموذج المثالي

تروي لنا الأسطورة تاريخاً مقدساً، حَدَثاً بدئياً جرى في بداية الزمان. لكن رواية تاريخ مقدس تعني الكشف عن سر، لان شخصيات الأسطورة ليسوا كائنات بشرية: هم آلهة أو أبطال حضارة،

له. الأسطورة، إذن، هي تأريخ ما حدث في ذلك الزمان، و«قول» أسطورة هو اعلان ما حدث في الأصل. وهي اذا «قيلت» فمعنى ذلك انه أوحى بها، تصبح حقيقة قائمة بذاته: تؤسس الحقيقة المطلقة. «انه هكذا لأنه قيل انه هكذا»، يعلن الاسكيمو التيسليك لتبرير اساس تاريخهم المقدس وتقاليدهم الدينية. الأسطورة تعلن ظهور «وضع» كوني جديد أو حَدَثٌ بذئي. هي دائماً رواية «خلق»: تروي كيف حدث شيء ما، كيف بدأ «يكون»: وهذا ما يبين لنا لماذا تتحد الأساطير مع الأنطولوجيا: لا تتكلم الا عن الحقائق، عما يحدث حقيقةً، عما يتجلى بكل امتلائه.

ان الأمر يتعلق بحقائق مقدسة، لأن المقدس هو الحقيقي بامتياز. لا شيء مما ينتسب إلى دائرة الدنيوي يشترك في الوجود، لأن الدنيوي لم يؤسس أنطولوجياً بالأسطورة، وليس له نموذج مثالي. كما سوف نرى، العمل الزراعي طقس أُوْحِت به الآلهة أو أبطال الحضارة، وهو يشكل في نفس الوقت عملاً حقيقياً وحافلاً بالمعنى. اما في مجتمع نزعته منه صفة القدسية فهو فعل دنيوي، ليس له ما يبرره سوى فائدته الاقتصادية. فإذا حُرِثت الأرض فلاستثمارها سعياً وراء الغذاء والريح. والعمل الزراعي اذا أفرغ من الرمزية الدينية يصبح عملاً «كثيفاً» و«مرهقاً»: لا يكشف عن معنى، ولا يفتح «نافذة» على العالمي، على عالم الروح.

ما من إله، وما من بطل تحضير، قد أوحى بفعل دنيوي. كل ما فعله الآلهة أو الأسلاف، وبالتالي كل ما ترويه الأساطير عن أفعالهم

الخلّاقة، انما يدخل في دائرة القدسي، وبالتالي يشترك في الوجود. وبالمقابل، كل ما يفعله الناس بمبادراتهم الشخصية، أي بدون نموذج ميطيقي، انما يدخل في دائرة الدنيوي، أي هو عبث ووهم، وبالتالي غير حقيقي. كلما كان الإنسان متديناً، كان تحت تصرفه نماذج مثالية تعيّن له أنماط سلوكه وأفعاله. أو كلما كان متديناً، اندرج في الحقيقي، وقُلّ تعرّضه لخطر المتاهة في افعال غير مثالية، «ذاتية»، وبالتالي ضالّة.

في الأسطورة جانب حقيقٌ بأنّ نبيّن أهميته على وجه الخصوص، وهو الجانب الذي يكشف عن القداسة المطلقة، ويحكّي لنا عن الفعالية الخلاقة التي يقوم بها الآلهة، ويميط اللثام عن قدسية اعمالهم. بعبارة أخرى ان الأسطورة تصف لنا مختلف تفجرات القدسي في العالم، وهي تفجرات ذات طابع درامي في بعض الأحيان. ولذلك نجد كثيراً من البدائيين لا يروون الأساطير بدون مراعاة للزمان أو المكان؛ لا يروونها الا في أغنى فصول السنة من الناحية الطقسية (خريف، شتاء)، أو في أثناء الاحتفالات الدينية. بكلمة واحدة، في اثناء الزمن المقدس. ان تفجّر القدسي في العالم، وهو ما ترويه الأسطورة، هو الذي يؤسس للعالم حقاً. كل اسطورة فإنما تروي كيف جاءت حقيقة ما إلى حيّز الوجود، سواء أكانت هذه الحقيقة كلية، كالكون، ام مجرد جزء منه، كأن تكون جزيرة أو نوعاً من نبات أو مؤسسة بشرية. عندما نروي كيف جاءت الأشياء إلى حيّز الوجود، فإنما نجد تفسيرها ويأتينا الجواب مُداوّةً على سؤال آخر. لماذا جاءت إلى الوجود؟ هذه الـ «لماذا» متراكبة دائماً مع الـ «كيف».

وإنما كان هذا التركيب لسبب بسيط هو أننا إذ نروي «كيف» كانت ولادة شيء فإنما نكشف عن تفجّر القدسي في العالم، العلة الأخيرة لكل وجود حقيقي.

من ناحية أخرى، كل خلق، بما هو عمل إلهي، وبالتالي تفجّر للقدسي، فإنما يمثل أيضاً تفجراً للطاقة الخلاقة في العالم. كل خلق فإنما يتفجّر عن امتلاء. الآلهة تخلق عن فرط قدرة، وفيض طاقة. الخلق ينشأ عن زيادة الجوهر الأنطولوجي. ولهذا السبب تصبح الأسطورة التي تحكي لنا هذا الظهور الوجودي المقدس، هذا التجلي المجيد من امتلاء الوجود، تصبح النموذج المثالي لجميع الفعاليات البشرية؛ فهي وحدها تكشف عن الحقيقي والغزير والفعال. «يجب علينا أن نفعل كما فعلت الآلهة في البدء»، هكذا يقول أحد النصوص الهندية (ساتاباتا براهمانا، ٧، ٢، ١، ٤). «كما فعلت الآلهة، كذلك يفعل الناس»، تضيف تايتريا براهمانا (١، ٢، ٥، ٩، ٤). الوظيفة الرئيسية للأسطورة هي إذن «تثبيت» النماذج المثالية لجميع الطقوس والفعاليات البشرية الهامة: طعام، جنس، شغل، تعليم، الخ. والإنسان، بما هو كائن بشري مسؤول مسؤولية تامة، يقلد البوادر المثالية التي ابتدتها الآلهة، ويكرر أفعالها، سواء ما تعلق منها بوظيفة فيزيولوجية بسيطة كالطعام أو بنشاط اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو عسكري الخ.

وفي غينيا الجديدة أساطير كثيرة تتحدث عن رحلات طويلة في عباب البحر. وهي بذلك إذ تضع أمام الملاحين الحاليين نماذج عملية، فلكي تزودهم بنماذج عن جميع الأعمال الأخرى «سواء

أكانت تتعلق بالحب أو الحرب أو الاستسقاء أم بأي شيء آخر... ان تلاوة الأسطورة تزودهم بسوابق عن مختلف اللحظات التي اقتضاها صنع قارب، وعن المحرمات الجنسية التي تنطوي عليها، الخ... وعندما يبحر قبطان في قاربه، يتمثل البطل الأسطوري «آوري» AORI. ويرتدي اللباس الذي كان يرتديه آوري على ما نصفه الأسطورة، ويغطي وجهه بالسواد بحيث يصير كوجه آوري، ويعقد فوق رأسه جديلة شبيهة بالجديلة التي كان انتزعها آوري من رأس إيوير، ثم يرقص على الرصيف باسطاً ذراعيه كما كان آوري يفرد جناحيه». ويروي ف. أ. وليامز (نقله لاوي بروهل إلى «الميثولوجيا البدائية»، باريس ١٩٣٥، ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤) ان أحد الصيادين قال له انه عندما كان يذهب لصيد السمك بقوسه كان يهب نفسه إلى «كيواويا» نفسه. لم يكن يتضرع إلى هذا البطل الأسطوري طالباً عونهُ: «كان يتواحد به».

هذه الرمزية من السوابق الميثيقية نجدها أيضاً في ثقافات بدائية أخرى. ففي موضوع «كاروك كاليفورنيا»، يكتب ج. ب. هارنغتون: «كل ما كان يفعل الكاروك ما كان ليتم لولا ان الإكسارياف، بحسب اعتقادهم، كانوا اعطوا عنه مثلاً أو نموذجاً في الأزمنة الميثيقية. والإكسارياف قوم كانوا يسكنون اميركا قبل مجيء الهنود الحمر إليها. والكاروك الحديثون، وهم لا يعرفون ترجمة هذه الكلمة (أي الإكسارياف)، يرون ان تُترجم بالأمراء أو الرؤساء أو الملائكة... لم يبقوا معهم غير الوقت الضروري لكي يعلموهم ويدربوهم على جميع العادات، وكانوا يقولون للكاروك في كل مرة:



وانظروا كيف كان يفعل بنو البشره . ومازالتم افعالهم تُنقل وأقوالهم تُروى بصيغ الكاروك السحرية .

هذا التكرار الأمين للنماذج الإلهية ذو نتيجة مزدوجة :  
أولاً - الإنسان ، اذ يحاكي افعال الآلهة ، فإنما يتمسك بالقدسي ، وبالتالي ، بالحققي . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ،  
ثانياً - انه بفضل التحيين غير المنقطع للبوار الإلهية المثالية يتقدس العالم . لأن السلوك الديني الذي يسلكه الناس يساهم في الحفاظ على قدسية العالم .

## تَحْيِين الأساطير

من الأمور الهامة ان نلاحظ ان الإنسان الديني الذي يتمتع بإنسانية ذات نموذج يفوق ما هو بشري ، ويعلو عليه . فهو لا يرى نفسه إنساناً حقاً الا بمقدار ما يحاكي الآلهة أو أبطال الحضارة أو الأسلاف الميطيقين . صفوة القول ، ان الإنسان الديني يريد لنفسه شيئاً آخر غير الذي لا يجد نفسه فيه ، يريد لنفسه ان يوجد على صعيد آخر غير صعيد اختبارات الدنيوية . الإنسان الديني ليس مُعْطَى : انه يصنع نفسه باقترابه من النماذج الإلهية . وهذه النماذج قد حفظتها له الأساطير وتاريخ البوار الإلهية . يترتب على ذلك ان الإنسان الديني يعتبر نفسه هو أيضاً صنعة التاريخ ، شأنه في هذا كشأن الإنسان الدنيوي . لكن التاريخ الوحيد الذي يهمه هو التاريخ المقدس الذي كشفت عنه الأساطير وتاريخ الآلهة . هذا ، بينما يريد الإنسان الدنيوي ان يتكوّن

بالتاريخ البشري ؛ أي ان تكونه نفس المجموعة من الأفعال التي لا يعبرها الإنسان الديني اهتماماً ما دامت تفتقر إلى النماذج الإلهية . نؤكد ما يلي : منذ البداية ، يقيم الإنسان الديني نموذجاً الخاص الذي يريد بلوغه على الصعيد الذي يفوق ما هو بشري ، وهو الصعيد الذي كشفت عنه الأسطورة . انه لا يصير إنساناً حقيقياً الا بالتوافق مع ما تعلمه الأساطير ، ومحاكاته للآلهة .

لكن هذه المحاكاة الإلهية قد تنطوي على مسؤولية بالغة الخطر بالنسبة للبدايين . رأينا كيف ان قرابين دامية معينة تجد تبريرها في فعل إلهي بذئي : في ذلك الزمان ، قتل الإله هولة البحر وقطعه إرباً لكي يخلق الكون من أشلائه . والإنسان انما يكرر هذا الفعل البدئي ، أو هذا القربان الدامي ، الذي قد يصل أحياناً إلى تقريب قربان بشري ، اذا كان عليه ان يبني قرية أو معبداً أو حتى منزلاً . ولعل أظهر النتائج التي أحدثتها المحاكاة الإلهية هي الأساطير والطقوس التي نجدها عند كثير من الأقوام البدائية . مثال ذلك ما ترويه اساطير الفلاحين الأولين ان الإنسان انما صار إلى ما صار اليه اليوم - فانياً ، ذكراً وأنثى ، محكوماً عليه بالشغل - على أثر عملية قتل بذئية : قبل العصر الميطيقي ، ضحى بنفسه كائن إلهي ، امرأة أو صبية غالباً ، طفل أو رجل أحياناً ، لكي يتيح للأشجار المثمرة ان تطلع من جسده . هذه التضحية الأولى قد غيّرت من نمط الوجود البشري تغييراً جذرياً . اذ دشت ضرورة الغذاء كما دشت حتمية الموت ، وما ترتب على ذلك من ضرورة الجنس ، وهو الوسيلة الوحيدة لضمان ديمومة الحياة . فقد

استحال جسد الكائن الإلهي القليل غذاء، ونزلت روحه إلى عالم ما تحت الأرض، حيث استست بلاد الأموات. لقد بين جنسن، الذي أفرد دراسة هامة لهذا النموذج من الألوهيات التي يدعوها Dema، ان الإنسان، اذ يغتذي أو يموت فإنما يشارك «الديماء» في وجودها<sup>(1)</sup>.

وعند جميع هؤلاء الأقوام من الفلاحين الأولين يتكوّن الشيء الجوهري من الاستحضار الدوري للحدث البدئي الذي كان الأساس في الشرط البشري الراهن. فالحياة الدينية كلها قوامها احياء لذكرى أو تذكر. وتلعب عندهم الذكرى المُحْيِنة بالطقوس (تكرار القتل البدئي) دوراً حاسماً. يجب الاحتراس من نسيان ما حدث في ذلك الزمان. فالخطيئة الحقيقية هي النسيان: والصبيبة التي تمكث ثلاثة ايام تحت خيمة مظلمة، في اثناء أول محيض لها، دون ان تكلم احداً، انما تفعل ذلك لأن الصبيبة المييطيقية المقتولة اذ استحالت قمراً مكثت ثلاثة ايام في الظلام، فإذا خرقت حرمة الصمت وتكلمت، تصبح مذنبّة بنسيان حدث بدئي. هذا، ولا عبرة بالذكرى الشخصية، لأن ما يهم هو تذكر الحدث المييطيقي؛ فهو الوحيد الجدير بالاهتمام، وهو الوحيد الخلاق. إلى المييطيكا البدئية يرجع الفضل في حفظ التاريخ الحقيقي، تاريخ الشرط البشري: فيها يجب البحث والعثور على المبادئ والنماذج لكل سلوك.

في هذه المرحلة من الثقافة نلتقي بطقس أكل اللحم البشري.

---

(1) Ad. E. JENSEN, Das Religiöse Weltbild einer Frühen Kultur (Stuttgart, 1948).

يبدو ان الهم الأكبر عند الأديم\* (أكل اللحم البشري) هو من جوهر ميتافيزيقي: وجوب عدم نسيان ما حدث «في ذلك الزمان». وقد بين كل من فولهارت وجنسن بكل جلاء أنه بقتل أنثى الخنزير والتهام لحماها في الأعياد، وأكل بواكير محصول الدرن، يؤكل الجسد الإلهي بنفس الطريقة التي تجري في اثناء الوليمة الكنيسالية (التي يؤكل فيها لحم البشر). فذبح أنثى الخنزير، وصيد الرؤوس، والأدامة\* (أكل اللحم البشري)، كل هذه تتواحد رمزياً مع جثي الدرن أو جوز الهند. ويرجع الفضل إلى فولهارت في تجلية المعنى الديني للأدامة والمسؤولية التي يضطلع بها الأديم في العالم<sup>(1)</sup>. فالنبات الغذائي لا يُعطى في الطبيعة، وإنما هو نتاج حادث قتل، لأنه هكذا كان خلقه في فجر الزمان. وما اصطاد الإنسان الرؤوس، ولا قرب القرابين البشرية، ولا أكل لحم البشر إلا لكي يمنح الحياة للنبات. وقد أكد فولهارت هذه الفكرة مُبيناً أن الأديم يضطلع بمسؤولية في العالم، وأن الأدامة ليست سلوكاً «طبيعياً» يسلكه الإنسان «البدائي» (أي لا يضع نفسه في مستوى أقدم الثقافات)، بل هي سلوك ثقافي، مؤسس على رؤية دينية للحياة. فلنكي يظل عالم النبات حياً، ينبغي للإنسان ان يقتل أو يُقتل، كما ينبغي له ان ينغمس في الجنس إلى أقصى حد: التهلك والفحش. ثمة أغنية حبشية تقول: «مَنْ لَمْ تَلِدْ بَعْدَ فُلْتَلْد، وَمَنْ

\* بحسب قاموس المنهل - المترجم -

(1) E. VOLHARDT, Kannibalism (stuttgart, 1939). Cf. M. ELIADE, Mythes, Rêves et Mysteres (Gallimard, 1957), PP. 37 sq.

لم يَقْتُلْ بعدُ فليَقْتُلْ ا، وهي طريقة أخرى للقول ان الجنسيتين محكوم عليهما بأن يتوليا أمر قدرهما.

قبل ان نحكم على الأدامة (أكل لحوم البشر)، يجب الانسى ان كائنات عليا هي التي أسست لها. وإنما فعلت ذلك لكي تتيح للبشر ان يضطلعوا بمسؤولياتهم في الكون، وتجعلهم في وضع يمكنهم من السهر على استمرارية الحياة النباتية. ان الأمر يتعلق، اذن، بمسؤولية من الطراز الديني. ويؤكد ذلك أكلة لحوم البشر من الـ «أوتوتو»: «تقاليدنا ابدأ جثة فينا، حتى حين لا نرقص، لكننا لا نشتغل الا لكي نستطيع ان نرقص». ويتكون الرقص من تكرار لجميع الأحداث الميطيقية، وبالتالي لأول حادثة قتل أعقبها أكل لحم بشري.

وإنما ذكرنا هذا المثال لكي نبين ان المحاكاة الإلهية، سواء عند البدائيين أو في الحضارات الشرقية القديمة، ليست ذات طابع مثالي، بل تنطوي على مسؤولية إنسانية خطيرة. في حكمنا على مجتمع «همجي»، يجب الا يغيب عن نظرنا انه حتى اكثر الأفعال بربرية، وأكثر أنماط السلوك انحرافاً، لها نماذج عليا، إلهية اما ان نعرف لماذا، وفي اعقاب اي نوع من انواع التفهق وسوء الفهم، تدهورت بعض انماط السلوك الديني وانحرفت عن غايتها، فمسألة أخرى لا نتعرض لها هنا. ما يهمنا تبيان الان هو ان الإنسان الديني كان يريد ويعتقد انه يحاكي الالهة حتى حين كان يبيع لنفسه الانحراط في اعمال تتسم بالجنون والخسة والإجرام.

## التاريخ المقدس ، التاريخ ، المدرسة التاريخية

### historicisme

إيجاز ما تقدم ان الإنسان الديني يعرف نوعين من الزمان :  
دنيوي ومقدس . دهر يتلاشى ، و«امتداد أزلية» قابل للاستعادة دورياً  
في الأعياد التي تشكل التقويم (الروزنامة) المقدس . فزمان التقويم  
الليشورجي يجري في دوائر مغلقة : هو الزمن الكوني للسنة ، الزمن  
الذي تقدس بـ «أعمال الآلهة» . وبما ان خلق العالم كان اعظم عمل  
قامت به الآلهة ، يلعب إحياء الذكرى الكوسموغونية دوراً كبيراً في كثير  
من الأديان . فالعام الجديد يتزامن مع اول يوم من ايام الخلق . والسنة  
هي بُعد زمني من الكون . يقال : «انقضى العالم» عند انقضاء السنة .  
في كل عام ، يتكرر خلق العالم ، يتجدد خلق العالم ، وبهذا  
يخلق «الزمان» ايضاً ، وتتجد ولادته اذ «يبدأ من جديد» . وهكذا تصلح  
الأسطورة الكوسموغونية نموذجاً مثالياً لكل «خلق» أو لكل «بناء» ،  
وهي تصلح حتى وسيلة طقسية للشفاء . فالمريض اذ يصبح رمزياً  
معاصراً للخلق ، فإنما يسترجع الامتلاء البدني فيشفى لأنه يبدأ حياته  
من جديد ومعه قدر من الطاقة لم ينفد منه شيء .

العيد الديني تحيينٌ لحدث بدئي ، لتاريخ مقدس ، اشخاصه  
الآلهة والكائنات شبه الإلهية . والتاريخ المقدس ترويه الأساطير . وتبعاً  
لذلك ، يصبح الذين يشاركون في العيد معاصرين للآلهة والكائنات  
شبه الإلهية ، يحيون في الزمان البدئي الذي تقدس بحضور فعالية  
الآلهة . والروزنامة المقدسة تجدد الزمان دورياً ، لأنها تجعله متزامناً

مع زمان الأصل، الزمان القوي، النقي. ويتيح الاختبار الديني للعبد، أي المشاركة في القدسي، يتيح للناس أن يحيوا دورياً في حضرة الآلهة. من هنا تأتي الأهمية العظمى للأساطير في جميع الديانات قبل الموسوية، لأنها تروي بوادر الآلهة التي تكون النماذج المثالية لجميع الفعاليات البشرية. والإنسان الديني يعيش في زمان الأصل، أي في الزمان الميطيقي، بمقدار ما يحاكي آلهته. «يخرج» من الزمان الدنيوي، لكي ينضم إلى الزمان «الثابت»، إلى الأزلية.

وبما أن الأساطير تشكل، عند إنسان المجتمعات القديمة، تاريخه المقدس، كان عليه أن يحاذر من نسيانها: فهو بتحيينه للأساطير يقترب من الآلهة ويشارك في القداسة. لكن هناك أيضاً «تواريخ دينية مأساوية»، والإنسان إذ يُحييها دورياً يضطلع بمسؤولية كبيرة تجاه نفسه وتجاه الطبيعة. الكاينيبالية (= الأدامة) الطقسية مثلاً هي أثر من مفهوم ديني مأساوي.

باختصار، إن الإنسان الديني، إذ يحين أساطيره، يحاول أن يقترب من الآلهة، وأن يشارك في الوجود؛ كذلك أن محاكاته للنماذج المثالية الإلهية تعبر عن نفس الوقت عن تطلعه إلى القداسة وعن حنيه الأنطولوجي.

في الديانات البدائية والقديمة، يجد التكرار الأبدي للبوادر الإلهية مُسَوِّغة من حيث كونه محاكاةً إلهية. فالروزنامة المقدسة تستعيد دورياً نفس الأعياد، وتحيي ذكرى نفس الأحداث الميطقية. بالمعنى المخصوص للكلمة، تبدو الروزنامة المقدسة وكأنها «الغود الأبدي» لعدد محدود من البوادر الإلهية، وهذا صحيح لا في الديانات

البداية وحسب، وإنما في سائر الديانات الأخرى أيضاً. حيثما ذهبنا، وجدنا الروزنامة المقدسة تشكل عودة دورية لنفس الأوضاع البدئية، وبالتالي تحييناً لنفس الزمان المقدس. بالنسبة للإنسان الديني يشكل تحيين الأحداث الميظيقية أملاً الأكبر؛ فهو في كل تحيين يستعيد الفرصة لتغيير هيئة وجوده، وجعله مشابهاً للنموذج الإلهي. باختصار، بالنسبة للإنسان الديني في المجتمعات البدائية والقديمية، لا ينطوي التكرار الأبدي للبوارد المثالية، وكذا اللقاء الأبدي مع نفس الزمان الميظيقي، زمان الأصل، الذي قدسته الآلهة - لا ينطوي ابداً على رؤية متشائمة للحياة. بل بالعكس، انه بفضل هذا والعود الأبدي إلى ينباع القدسي والحقيقي يبدو له الوجود البشري وقد أنقذ من العدم ومن الموت.

لكن المنظور يتغير كلياً عندما يَغْمُضُ معنى التدوين الكوني. ان هذا ما يحدث في بعض المجتمعات التي قطعت شوطاً في مضمار التطور، وذلك عندما تنفصل النخبة الفكرية تدريجياً عن نطاق الديانة التقليدية. عندئذ يصبح التقديس الدوري للزمان الكوني لا جدوى منه ولا معنى له. فالآلهة لم يعد يمكن الوصول إليها من خلال الإيقاعات الكونية. وتكرار البوارد المثالية يفقد مغزاه الديني. ذلك ان التكرار المفرغ من محتواه الديني يؤدي اضطراراً إلى رؤية متشائمة للوجود. عندما لا تعود توجد أداة يُستعاد بها وضع بذني، ويُستعاد بها الحضور السري للآلهة، عندما يتجرد الزمان الدوري من قدسيته، عندئذ يصبح الزمان باعثاً على الخوف، يتكشف عن حلقة تدور حول نفسها بلا حدود، وتكرر إلى ما لا نهاية.



وهذا ما حدث في الهند حيث صيغت بمهارة عقيدة الأدوار الكونية (يوغا). وعندهم ان الدور التام، المها يوغا، يتألف من ١٢,٠٠٠ سنة. وينتهي بالانحلال (برالايا) يتكرر على نحو اكثر جذرية، (مهابرالايا)، وهو الانحلال الأكبر، الذي يحصل في نهاية الدور الألف. ذلك لأن التخطيط النموذجي، المؤلف من خلق - دمار - خلق، يتكرر إلى ما لا نهاية. وتعتبر الـ ١٢,٠٠٠ سنة «سنوات إلهية»، يدوم كل منها ٣٦٠ سنة، بحيث يبلغ مجموعها ٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة، وهي دور كوني واحد. وعندهم ان كل الف مها يوغا تؤلف «كالبا» KALPA واحدة، وكل اربع عشرة كالبا تساوي «مانواطارا». (وقد سُميت كذلك لافتراض ان كل «مانواطارا» يحكمها «مانو»، وهو الجد - الملك المبطني). وكل كالبا تساوي نهراً واحداً من حياة براهما، وكالبا ثانية تساوي ليلة من حياته. وكل مئة من هذه «السنوات» البراهمية، أي ٣٦١٠٠٠ مليار سنة بالمعايير البشرية، تؤلف حياة براهما. لكن هذه الديمومة الهائلة من حياة براهما لا تصل إلى حد استنفاد الزمان، لأن الآلهة ليسوا أبديين، والخلق والدمار الكونيان يتعاقبان إلى ما لا نهاية<sup>(١)</sup>.

هذا هو «العود الأبدي» الحقيقي، أي التكرار الأبدي للإيقاع الأساسي في الكون: دماره وتكرار خلقه الدوريان. باختصار، هذا هو المفهوم البدائي لـ «السنة - الكون»، لكنه مفرغ من محتواه الديني.

(1) M. ELIADE, Le Mythe de l'Éternel Retour, PP. 169 sq. Voir aussi Images et Symboles (Paris, 1952), PP. 80 sq.

يجب ان نذكر ان عقيدة الـ «يوغا» قد صاغتها نخبة من رجالات الفكر، ويجب الا نتصور بعد إذ اصبحت عقيدة آمنت بها الهند كلها انها تنكشف عن جانبها الرهيب لجميع سكان الهند. وانما النخبة الدينية والفلسفية وحدها هي التي كانت تحس اليأس حيال الزمان الدوري الذي يتكرر إلى ما لا نهاية. فبالنسبة للتفكير الهندي، هذا العود الأبدي ينطوي على عود أبدي إلى الوجود بفضل الـ «كرما»، قانون السببية العالمي. من ناحية ثانية، يتشاكل الزمان مع الوهم الكوني (مايا)، والعود الأبدي إلى الوجود يعني استدامة غير محدودة للألم والعبودية. ولذلك كان الأمل الوحيد بالنسبة لهذه النخبة الدينية والفلسفية هو الانقطاع عن العودة إلى الوجود، ابطال الـ «كرما». بعبارة أخرى، ان الخلاص النهائي (موكشا) ينطوي على اختراق الكون<sup>(١)</sup>.

كذلك عرف الإغريق اسطورة العود الأبدي، وقد دفع فلاسفة العصر المتأخر مفهوم الزمن الدوري إلى حدوده القصوى. وفيما يلي ننقل عن H. ch. Puech هذه النبذة الجميلة: «الزمان، بحسب التعريف الأفلاطوني الشهير، من حيث إنه يعين ويقس دوران الأفلاك السماوية، هو الصورة المتحركة للأزل الثابت، التي تحاكيه فيما هي تجري دائرياً. يترتب على ذلك ان الصيرورة الكونية برمتها، وكذا ديمومة هذا العالم، عالم الولادة والفساد الذي هو عالمنا - كل ذلك

(١) ينحفي هذا الاختراق بالاستفادة من «اللحظة الملائمة» (كشانام) التي تعني نوعاً من الزمان المقدس الذي يتيح «الخروج من الزمان».

سوف يتطور في دوائر أو وفقاً لتعاقب غير محدود من الأدوار التي في خلالها تُخلق نفس الحقيقة وتهدم، ثم يعاد خلقها، طبقاً لناموس الأدوار الذي لا يتبدل. بل لقد توصل بعض المفكرين في نهاية العصور القديمة - كان منهم فيثاغوريون ورواقيون وأفلاطونيون - إلى الاعتقاد بأن مجمل الوجود نفسه لا يظل على ما هو عليه، لا يخلق ولا يضيع منه شيء، وحسب، وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاعتقدوا بأن في قلب كل دور من ادوار هذه الدهور يتكرر في الأدوار اللاحقة حدوث تعيين الأوضاع التي حدثت في الأدوار السابقة، إلى مالا نهاية. ما من حدث يحدث مرة واحدة (مثلاً، الحكم على سقراط بالموت)، بل حدث ويحدث دائماً: نفس الأشخاص الذين ظهروا في دور سابق سوف يظهرون في كل دور جديد؛ الدهر الكوني تكرر وعود أبدي<sup>(١)</sup>.

بالنسبة للأديان القديمة عموماً والشرقية القديمة خصوصاً، وكذا بالنسبة للمفاهيم الميطيقية - الفلسفية المتعلقة بالعود الأبدي على النحو الذي صاغتها الهند واليونان، تظهر اليهودية تجديداً هاماً. بالنسبة لليهودية، للزمان بداية ونهاية. هنا نجد فكرة الزمان الدوري قد تخطتها هذه الديانة. لم يعد يهوى يتجلى في الزمان الكوني (كآلهة الديانات الأخرى)، بل في الزمان التاريخي الذي لا يقبل الرجوع.

---

(١) HENRI - CHARLES PUECH, La Gnose et le Temps (ERANDS JAHRBUCH, XX,

1951), PP. 60 - 81.

لم يعد ممكناً ارجاع كل تجلٍ جديد ليهوه إلى تجلٍ سابق. فسقوط اورشليم يعبر عن غضب يهوه على شعب لكن هذا الغضب ليس هو نفس الغضب الذي كان عبر عنه عند سقوط السامرة. أصبحت بؤاده عبارة عن تدخلات شخصية في التاريخ، لا يتضح معناها العميق الا لشعبه، الشعب الذي اختاره يهوه. الحدث التاريخي هنا يكتسب بُعداً جديداً: يصبح ثيوفانيا (تجلياً إلهياً).

لكن المسيحية تذهب إلى أبعد من ذلك، حتى في تقويمها للزمن التاريخي. فيما أن الله قد تجسّد، واتخذ لنفسه وجوداً بشرياً مشروطاً بالتاريخ، يصبح التاريخ قابلاً للتقدّس. ان «ذلك الزمان» الذي تدعو اليه الأناجيل هو زمن تاريخي محدد تحديداً واضحاً. الزمن الذي كان فيه بيلاطس البنطي حاكماً على اليهودية -، الا انه زمان تقدس بحضور المسيح. والمسيحي المعاصر الذي يشترك في الزمن الليتورجي انما ينضم إلى «ذلك الزمان» الذي عاش فيه يسوع وتألّم وقام من الموت. لكن «ذلك الزمان» لم يعد ذلك الزمان الميطيقي، بل الزمان الذي كان فيه بيلاطس البنطي حاكماً على اليهودية. بالنسبة للمسيحي ايضاً، ان الروزنامة المقدسة تستعيد نفس احداث وجود المسيح بلا حدود، لكن هذه الاحداث قد جرت في التاريخ؛ فهي لم تعد وقائع حدثت في اصل الزمان، في البدء (مع هذا الفارق بالنسبة للمسيحي هو أن الزمان يبدأ من جديد مع ميلاد المسيح، ذلك ان التجسيد يؤسس وضعاً جديداً للإنسان في الكون). باختصار، ان التاريخ يتكشف بعداً جديداً لحضور الله في العالم.

التاريخ يعود فيصبح التاريخ المقدس، كما كان مفهوماً في الديانات القديمة والبدائية، لكن في منظور ميطيقي<sup>(1)</sup>.

ان المسيحية تقودنا إلى لاهوت التاريخ، لا إلى فلسفته. ذلك ان تدخلات الله في التاريخ، وخصوصاً تجسده في شخص يسوع المسيح التاريخي، لها هدف يتجاوز التاريخ: سلام الإنسان.

هيجل يعود فيتناول الإيديولوجية اليهودية - المسيحية ويطبقها على التاريخ العالمي في مجمله. الروح العالمي يتجلى باستمرار في الحوادث التاريخية، ولا يتجلى الا في هذه الحوادث. التاريخ يصبح اذن، في مجمله، ثيوفانيا (= تجلياً إلهياً): كل ما حدث في التاريخ كان يجب ان يحدث كما حدث، لأن الروح العالمي هو الذي أراده كذلك هذا هو التاريخ المفتوح امام مختلف صور الفلسفة التاريخية في القرن العشرين. هنا ننوقف عن البحث، لأن جميع هذه التقويمات الجديدة للزمان والتاريخ تنتمي إلى تاريخ الفلسفة. لكننا نضيف مع ذلك ان المدرسة التاريخية تتكون من وصفها نتائجاً لتفكيك المسيحية: تولي أهمية حاسمة للحدث التاريخي (وهذه فكرة ترجع إلى اصل يهودي - مسيحي)، لكن للحدث التاريخي، بما هو كذلك، اي بعد سلبه كل إمكانية تكشف عن قصد سوثيرولوجي يتجاوز التاريخ.

فيما يتعلق بمفاهيم الزمان التي توقفت عندها بعض الفلسفات

---

(1) Cf. M. Eliade, *Images et Symboles*, PP. 222 sq; *Aspects du Mythes*, PP. 100

التاريخية الوجودية، لنا ملاحظة لا تخلو من أهمية: رغم ان الزمان لم يعد يعتبر «دائرة»، الا انه يتخذ في هذه الفلسفات الحديثة مظهراً مربعاً كالذي كان له في الفلسفات الهندية والإغريقية في العُود الأبدى. الزمان، وقد تجرد من القدسية، يصبح وقتياً وعابراً ويفضي إلى الموت لا محالة.

## الفصل الثالث

---

قدسيّة الطبيعة  
والديانة الكونية





الطبيعة، في نظر الإنسان الديني، ليست ابداً «طبيعية» حصراً، بل هي دائماً محمّلة بقيمة دينية. وتفسير هذا ان الكون، من حيث هو خلق إلهي، خرج من أيدي الآلهة، يظل مُشرباً بالقدسية. ثم ان الأمر لا يتعلق بقدسية انتقلت من الآلهة إلى مكان او شيء طوّيه حضور إلهي وحسب، وإنما بأكثر من هذا: لقد بينت الآلهة مختلف أنماط القدسي في نفس بنية العالم والظواهر الكونية.

يتبدى العالم، اذ يتأمله الإنسان الديني، عن اوجه كثيرة من القدسي، وبالتالي عن الوجود. فقبل كل شيء، العالم موجود، إنه هنا، وإن له بنية: ليس عماء Chaos بل كون Cosmas. وبالتالي، يفرض نفسه بوصفه خلقاً، عملاً قام به الآلهة. هذا العمل الإلهي يحتفظ دوماً بنوع من الشفافية تميّط اللثام عن المظاهر المتكثرة من القدسي. فالسمااء تكشف من الوهلة الأولى، وبصورة «طبيعية»، عن المسافة غير المنتهية، المفارقة، لله. وللأرض ايضاً شفافية: تتبدى

أماً ومُطعمَةً عالمية . والإيقاعات الكونية تتكشف عن النظام والانسجام والدوام والخصب . والكون ، في مجموعه ، جهاز حقيقي ، حي ، ومقدس . ويكشف في الوقت نفسه عن انماط الوجود وعن القدسية . فيه يلتحم الأنطوفانيا (تجلي الوجود) والهيروفانيا (تجلي القدسي) .

سوف نحاول في هذا الفصل ان نفهم كيف يتبدى العالم في نظر الإنسان الديني - بتعبير ادق - كيف تتبدى القدسية من خلال بنية العالم نفسها يجب ألا ننسى ان «ما فوق الطبيعي» ، بالنسبة للإنسان الديني مرتبط بـ «الطبيعي» ارتباطاً لا انفصام له ، وأن الطبيعة تعبر دائماً عن شيء يسمو عليها . فإذا قدس الإنسان القديم حجراً فلأنه حجر مقدس ، لا لأنه مجرد حجر ؛ انها القدسية المتجلية في نمط وجود الحجر التي تكشف عن جوهره الحقيقي . كذلك لا يمكننا ان نتكلم هنا عن «مذهب طبيعي» ، أو عن «ديانة طبيعية» ، بالمعنى الذي أعطي لهذه الكلمة في القرن التاسع عشر ، ذلك ان «ما فوق الطبيعي» هو الذي يتيح للإنسان الديني ان يفهمه من خلال المظاهر «الطبيعية» في العالم .

## المقدس السماوي وآلهة السماء

ان مجرد التأمل في القبة السماوية كافٍ لابتداء خبرة دينية فالسمااء تتكشف عن غير المنتهي ، عن المتعالي . وهي «كلية الأشياء» بامتياز بالنسبة إلى هذا اللاشيء الذي يمثله الإنسان ومحيطه . ويتكشف التعالي بمجرد إدراك العلو غير المنتهي . وبذلك يغدو

«التعالى» صفة ملازمة للآلوهة بصورة عفوية. وتكتسب الأقاليم العليا التي لا يرقى اليها الإنسان، وكذلك المناطق النجمية، قوة المتعالى، الحقيقة المطلقة الأزلية. هناك حيث مقام الآلهة؛ وإلى هناك يصل بعض الممتازين بواسطة طقس الصعود؛ وإلى هناك ترتفع أرواح الموتى، بحسب مفاهيم بعض الأديان. «الشديد العلو» بُعد لا يرقى اليه الإنسان بما هو كذلك؛ فهو حق للقوى والكائنات التي تفوق البشر. إلا أن من يصعد درج حرم مقدس أو سلم طقسي يؤدي إلى السماء، لا يعود عندئذ كائناً بشرياً؛ على نحو أو آخر، يشترك في الشرق الذي يفوق الطبيعي.

أن الأمر لا يتعلق بعملية منطقية، عقلانية. بل أن المقولة المتعالية المتعلقة بالعلو، بما يعلو على الأرض، وبغير المنتهى، تتكشف للإنسان في كليته: لعقله ولروحه على السواء. إنها وعي كلي للإنسان: أمام السماء، يتبين له انعدام القياس بين الآلوهة وبين موقعه في الكون. السماء، في نمط وجودها الخاص، تكشف عن التعالى والقوة الأزلية. إنها موجودة على نحو مطلق، لأنها عالية، غير منتهية، أزلية، قوية.

بهذا المعنى يجب أن نفهم ما تقدم قوله. فالآلهة بيئت مختلف أنماط وجود القدسي في بنية العالم نفسه: الكون - وهو العمل المثالي الذي قامت به الآلهة - «مبنى» بحيث يتيح للشعور الديني بالتعالى أن يحرضه ويستثيره وجود السماء نفسها. وبما أن السماء موجودة على نحو مطلق، دُعي عدد كبير من الآلهة العليا، عند الأقوام البدائية.

بأسماء تدل على العلو والقبة السماوية والظواهرات المترولوجية، أو حتى تُدعى بـ «مالكى السماء» أو «سكان السماء».

الألوهة العليا عند الـ «ماؤوريس» Maoris تُسمى «إيهو» Iho، ومعناه «الرفيع، فوق». والإله الأعلى عند زنج «اكبوزو»، اسمه «أوبولوبو»، ومعناه «الذي فوق، في الأقاليم العليا». الإله الأعلى عند «الأندمان»، بولوغا، يسكن السماء: صوته الرعد ونفسه الريح، والعاصفة علامة غضبه، لأنه يعاقب بالصاعقة من يعصون أمره. عند الـ «سلكنام»، في أرض النار، يُسمى الله «ساكن السماء» أو «الذي في السماء». إله السماء عند الـ «يوروب»، في ساحل الرقيق، يسمى «أولورون»، حرفياً «مالك السماء». الـ «سامويديون» يعبدون «نوم»، الإله الذي يسكن في السماء العليا ومعنى اسمه «السماء». عند الـ «كوريك» تُدعى الألوهة العليا الـ «واحد من الأعلى» «سيد الأعلى»، «الذي يوجد». وعند الـ «إينوس»، يُعرف الإله باسم «رئيس السماء الإلهي»، «الإله السماوي»، «خالق العوالم الإلهي»، لكنه يُعرف أيضاً باسم «كاموي»، أي «السماء». ويمكننا في سران نطيل اللائحة<sup>(1)</sup>.

هذا، وإننا لنجد نفس الوضع في ديانات الأقوام الذين أصابوا سهماً وافرأ من الحضارة، ولعبوا دوراً كبيراً في التاريخ. الاسم المنغولي للإله الأعلى هو «تنغري» tengri، ومعناه «السماء» الـ «تشان» الصيني معناه في الوقت نفسه «السماء» و«إله السماء».

(1) M. ELIADE, Traité d' Histoire des Religions, PP. 47 - 64.

الاصطلاح السومري للآلوهة، «دنغير»، كان له معنى بدائي يدل على ظهور سماوي: «نور، ساطع». و«آنو» البابلي يعبر أيضاً عن مفهوم السماء. الإله الأعلى عند الأقوام الهندو-اوروبية، ديوس Diëus، يدل في الوقت نفسه على الظهور الإلهي، وعلى القدسي (في السنسكريتية: div، ديف، وتعني: سطح، نهار؛ clyaus، ديوس، وتعني: سماء، نهار- وديوس dyaus أيضاً إله السماء الهندي). وما زال زيوس وجوبيتر يحتفظان بذكرى القدسية السماوية في اسميهما. والإله تارانيس عند السلت مشتق اسمه من «تاران» ومعناها: يرعد. كذلك الإله البلطقي بركوناس Perkunas، ومعناه «البرق». والإله الأصلي عند السلاف، بيرون Perun، أيضاً معناه «البرق» (في البولونية: Piorun: «برق»). وتظهر هذه الآلهة الأخيرة ما طرأ عليها من تغيرات لاحقة حولتها من آلهة السماء إلى آلهة للعاصفة.

على أننا يجب ألا نخلص من ذلك إلى «المذهب الطبيعي» naturisme. فالإله السماوي لا يتوحد مع السماء، ذلك أن الله نفسه، بما هو خالق الكون كله، هو الذي خلق السماء أيضاً. ولذلك يُدعى «خالقاً» و«قديراً» و«رباً» و«رئيساً» و«أباً»، الخ. الإله السماوي شخص، وليس ظهوراً مقدساً سماوياً. لكنه يسكن السماء ويتجلى من خلال المظاهرات الميثورولوجية: رعد، صاعقة، عاصفة، شهب، الخ. إن هذا معناه أن مباني (بنى) معينة ممتازة من الكون - السماء، الجو- تشكل المظاهرات الأثيرة لدى الكائن الأعلى، الذي يكشف عن حضوره في ما هو مخصص له: جلال الرحابة السماوية، رهبة العاصفة.

## الإله البعيد

لتاريخ الكائنات العليا ذات البنية السماوية أهمية عظمى لمن يريد أن يدرس تاريخ أديان البشرية. ونحن لا نطمح في كتابة هذا التاريخ هنا، وفي بضع صفحات. انما نكتفي بالإشارة إلى حقيقة تبدو لنا أساسية: الكائنات العليا ذات البنية السماوية تميل إلى الاختفاء عن العبادة: «تبتعد عن الناس، وتنسحب إلى السماء. فهذه الآلهة، بعد أن خلقت الكون والحياة والإنسان، احسّت نوعاً من «التعب»، على ما يقال، كما لو أن المشروع الضخم الذي انجزته قد استنفد منها الموارد. انسحبت إلى السماء، لكنها تركت ابنها على الأرض، أو إلهاً خالقاً، لكي يستكمل فعل الخلق. شيئاً فشيئاً حل محلها أشخاص إلهيون آخرون: الأسلاف الأسطوريون، الإلهات - الأمهات، آلهة الإخصاب، الخ. فإله العاصفة لم يزل يحتفظ ببنية سماوية، لكنه لم يعد كائناً أعلى خالقاً. لقد أصبح مخصصاً للأرض ليس إلا، وأحياناً مجرد مساعد لنظيرته الأرض - الأم. الكائن الأعلى ذو البنية السماوية لا يحتفظ بمكانة راجحة الا عند أقوام الرعاة، ويحظى بمنزلة فريدة في الأديان ذات المنحى التوحيدي (اهورا - مزدا) أو عند الموحدين (يهوه، الله).

وإننا لنجد ظاهرة «إبتعاد» الإله الأعلى في المستويات القديمة من الثقافة. فعند الأوستريالين من «الكولين»، نجد الكائن الأعلى «بُونْجِيل» قد خلق العالم والحيوان والشجر والإنسان نفسه، وبعد أن

عهد لابنه وابته بالسلطان على الأرض والسماء ترتيباً، انسحب من العالم، وأقام في السحاب «رباً»، ويده صمصامة (= سيف كبير). كذلك عند الأندومانيين، انسحب الكائن الأعلى بعد أن خلق العالم والإنسان الأول. ومع سر «الابتعاد» يتطابق الغياب شبه التام للعبادة: لا قربان، لا صلاة، ولا فعل من أفعال الفضل. وبقي من عبادة «بولوغا» (وهذا هو اسم الكائن الأعلى عندهم) لا يكاد يعدو بضع عادات ما تزال تذكر به، من مثل «الصمت المقدس» يلتزمه الصيادون بعد عودتهم إلى القرية من رحلة صيد موفقة.

ساكن السماء أو الذي في السماء عند «السلكنام» كائن ازلي، عليم، قدير، خالق، لكن الخلق قام به أسلاف ميطيقبون، هم أيضاً خلقهم الإله قبل أن ينسحب إلى ما فوق النجوم. حالياً، هذا الإله منعزل عن الناس ولا يكثرث بشؤون العالم. ليس له تمائيل ولا كهنة، ولا يتوجه إليه الناس بالدعاء إلا في المرض: «انت الذي في العلا، لا تأخذ لي ولدي، فهو لَمَّا يزل صغيراً»<sup>(1)</sup>، ولا يقربون إليه القرابين إلا عند ثقلب الأحوال الجوية.

ويصح الشيء نفسه على غالبية اهالي افريقيا: فالإله الأعظم السماوي الكائن الأعلى، الخالق، القدير، لا يلعب غير دور صغير في حياة القبيلة الدينية فهو أبعد وأطيب من أن يحتاج إلى عبادة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولا يلجؤون إليه إلا عند الضرورة القصوى.

(1) MARTIN GUSINDE, Das höchste Wesen bei den Selk'nam auf Feuerland (Festschrift W. Schmidt, Wien, 1928, P. 269 - 274)

كذلك «اولورون» (مالك السماء) عند اليوروبا، بعد ان بدأ الخلق عهد إلى إله آخر صغير، اوياتالا، مهمة اتمام الخلق وحكم العالم. ثم تخلى نهائياً عن الشؤون الأرضية والبشرية. ولذلك ليس له معابد ولا تماثيل ولا كهان. الا أنه الملاذ الأخير في الشدائد.

الإله الأعلى نديامبي، إله الهيرورو، بعد ان انكفأ في السماء، اسلم البشرية إلى آلهة صغرى. وقد بين ذلك احد الأهالي الأصليين بقوله: «لماذا نَقَرَّب له القرابين؟ نحن لا نخاف منه، ذلك انه خلافاً (لأرواح) موتانا، لا يمسننا بسوء»<sup>(1)</sup>. الكائن الأعلى عند الطومبوكا «أكبر من ان يهتم بالشؤون العادية التي تشغل الناس»<sup>(2)</sup>. وإنا لنجد نفس الوضع عند الناطقين بلغة «تشي»، tshi، في افريقيا الغربية، وهم الـ «نجانكويون»؛ لا يعبدونه ولا يتولونه الا في الحالات النادرة كالقحط والوباء، او بعد عاصفة هوجاء؛ عندئذ يسأله الناس بأي شيء أسأؤا إليه. «جنكبي» (الأب العالمي)، الكائن الأعلى عند الـ «إيويه» Ewe، لا يدعونه الا عند الجفاف: «أيها السماء، من نحن مدينون له بالشكر، كبير هو الجفاف، انزل لنا المطر، ولتتجدد الأرض وتزهو الحقول»<sup>(3)</sup>.

ويعبر عن ابتعاد الإله الأعلى خير تعبير احد الأقوال المأثورة المتداولة عند الـ «جرياما» في افريقية الشرقية: «مولوغو» (الله) في

(1) Cf. Frazer . The Worship of Nature, I. (Londres, 1928), P. 150 sq.

(2) J. Spleth, Die Religion der Eweer (Göttengen - Leipzig 1911), PP. 46 sq.

(3) Mgr. Le Roy, La Religion des Primitifs (7e éd., Paris, 1925) P. 184.



الأعلى وأرواح الموتى في الأسفل». ويقول الـ «بأنطوا»: «بعد أن خلق الله الإنسان لم يعد يهتم به أبداً». ويؤكد الـ «نغريل» ان «الله ابتعد عنه»<sup>(1)</sup>. ويوجز اهالي الـ «فانغ»، في براري الفريقيا الاستوائية، فلسفتهم الدينية في الأنشودة التالية:

الله (أنزام) في الأعلى، الإنسان في الأسفل.

الله هو الله، الإنسان هو الإنسان.

كل عند نفسه، كل في بيته»<sup>(2)</sup>.

حينما نظرت في هذه الأديان البدائية، وجدت الكائن الأعلى السماوي قد فقد تأثيره الديني وأصبح مُغَيَّباً عن العبادة، والأسطورة تظهره لنا وقد ابتعد شيئاً فشيئاً عن الناس حتى غدا «إلهاً منسياً»؛ ومع ذلك يتذكره الناس، ويتضرعون إليه، عندما تمنى بالإخفاق جميع الخطوات المتخذة تجاه الآلهة والإلهات الأخرى والأسلاف والشياطين. وقد عبر عن ذلك «الأوراون» بالقول: «لقد بذلنا كل محاولة، ولم يبق لنا غيرك لكي تنقذنا»، ثم يلبحون له ديكاً ويهتفون: «ايها الإله، انت خالقنا، ارحمنا!»<sup>(3)</sup>

### الخبرة الدينية للحياة

ان «الابتعاد الإلهي» يترجم اهتمام الإنسان المطرد باكتشافاته الخاصة من دينية وثقافية واقتصادية. والإنسان البدائي انما يجد نفسه

(1) H. TRILLES, Les Pygmées de la Forêt équatoriale (Paris, 1932).

(2) Ibid., P. 77

3. FRAWER, OP, cit., P. 631.

مبتعداً عن الإله السماوي، مدفوعاً بشدة اهتمامه بالتجليات القدسية في الحياة، وبإكتشافه للقدسية في خصوصية الأرض، وشعوره بالتحريض على القيام بممارسات دينية موهلة في حسيها (لذات الجسد، بل وحتى التهلك). ان إكتشاف الإنسان البدائي للزراعة لم يغير اقتصاده تغييراً جذرياً وحسب، وإنما غير قبل كل شيء اقتصاده المقدس. فقد نزلت إلى الساحة قوى دينية جديدة: الجنس، الخصوصية، ميثولوجيا المرأة والأرض، الخ. نتيجة لذلك أصبحت الخبرة الدينية أكثر محسوسة، وأكثر امتزاجاً بالحياة. فأصبحت الأم العظمى والآلهة الأشداء أو عفاريت الخصوصية أكثر «دينامية» وأقرب إلى الإنسان من الإله الخالق.

لكن الإنسان - كما رأينا قبل قليل - لا يرجع إلى الكائن الأعلى ويتضرع إليه إلا في حالات الضرورات القصوى، بعد ان تكون قد أعيتته الحيل، وخصوصاً عندما تأتيه الكوارث من السماء: قحط، عاصفة، أوبئة. لكن هذا الموقف لا تنفرد به الأقوام البدائية، فقد كان العبرانيون كلما نعموا بالدعة والرخاء ابتعدوا عن إلههم «يهوه»، ودنّوا قَرَباً من «البعليم» ومن «العشروت»، وهي آلهة جيرانهم. وكانوا لا يلتفتون نحو «يهوه» إلا عند نزول الكوارث التاريخية بهم: «فصرخوا إلى الرب وقالوا أخطأنا لأننا تركنا الرب وعبدنا البعليم والعشارات. فالآن انقذنا من يد أعدائنا فنعبدك» (صموئيل الأول ١٢ : ١٠).

كان العبرانيون يتوجهون إلى يهوه في أعقاب الكوارث التاريخية وكلما أوشكوا على الانقراض تاريخياً. وكان البدائيون يتذكرون آلهتهم العليا كلما نزلت بهم كوارث كونية. لكن معنى هذه

العودة إلى الإله السماوي عند الأولين هو نفسه عند الآخرين: في وضع دقيق للغاية، حين يصبح وجود الجماعة نفسه معرضاً للخطر، يتخلون عن الآلهة التي تضمن لهم الحياة في الأحوال العادية وتعلي من شأنها، لكي يلوذوا احتماؤاً بالإله الأعلى. ظاهرياً، ثمة تضارب شديد: الآلهة التي كان البدائيون يستعيضون بها عن آلهة البنية السماوية كانت، كالبعليم والعشروت عند العبرانيين، كانت آلهة خصب وثرء وامتلاء حياة - آلهة تعلي من شأن الحياة الكونية وتزيدها ثراء - النبات، المزروعات، الماشية - بمقدار ما تعلي من شأن الحياة وتزيدها ثراء. ظاهرياً، هذه الآلهة آلهة قوية، ويفسر تأثيرها الديني تمام التفسير ما تملكه من احتياطات غير محدودة من الحيوية والخصب. ومع ذلك فقد كان عَبدُها، البدائيون والعبرانيون على السواء، يشعرون بأن جميع هذه الآلهة العظمى، وجميع هذه الآلهة الزراعية، كانت غير قادرة على انقاذهم، وعلى ضمان الوجود لهم، في اوقات الشدة. فهذه الآلهة ما كانت تستطيع غير تكرار انتاج الحياة وزيادتها؛ بل اكثر من ذلك، ما كانت تستطيع القيام بهذه الوظيفة الا في زمن «طبيعي» (اوسوي)؛ فالآلهة التي تضبط إيقاعات الكون على نحو مدهش، كان يتضح انها عاجزة عن انقاذ الكون او المجتمع البشري في الملمات (التاريخية) عند العبرانيين.

لقد جمعت مختلف الآلهة التي استعيض بها عن الكائنات العليا من القدرات اكثرها محسوسة وأكثرها توهجاً، وأعني بها قدرات الحياة. لكنها، لهذا السبب نفسه، «تخصّصت» في انتاج النسل ففقدت من قدراتها الطفها و«أنبلها» وأكثرها «روحانية»، كالتي تنصف

بها الآلهة الخالقة. والإنسان، اذ اكتشف قدسية الحياة، ترك نفسه ينساق تدريجياً وراء اكتشافه الخاص: اسلم نفسه للتجليات الإلهية الحيوية وابتعد عن القدسية التي كانت تتعالى عن احتياجاته الآنية واليومية.

## ديمومة الرموز السماوية

لكن لنلاحظ مع ذلك ان الأقاليم النجمية والرمزية السماوية، وكذا الأساطير وطقوس الصعود، تظل تحتفظ بمكانة راجحة حتى حين لا تعود الحياة الدينية تحكمها الآلهة السماوية. فالذي «فوق»، «العَلِّي»، يظل يتكشف عن المتعالي في كل نظام ديني. فالسما، بعيدة عن العبادة ومثبتة في الميثولوجيا، تظل ماثلة في الحياة الدينية بواسطة الرمزية. ثم ان هذه الرمزية السماوية بدورها تشيع في عدد من الطقوس (الصعود، التدرج، استلام الأسرار، تنصيب الملك، الخ)، وفي عدد من الأساطير (الشجرة الكونية، الجبل الكوني، سلسلة السهام التي تصل الأرض بالسما) والخرافات (الطيران السحري، الخ.). ثم ان رمزية «مركز العالم»، التي رأينا انتشارها الواسع، توضح لنا ايضاً اهمية الرمزية السماوية، وانه لفي رمزية «المركز» يتم الاتصال مع السما، وهذا يشكل الصورة المثالية للتعالي.

يمكننا القول ان بنية الكون نفسها تحتفظ بذكرى الكائن الأعلى السماوي حية، كما لو أن الآلهة قد خلقت العالم على نحو لا يستطيع معه الا يعكس وجودها؛ ذلك انه ما من عالم ممكن بدون المعمودية Verticalite، وهذا البعد وحده كاف لاستدعاء فكرة التعالي.

بالمعنى الدقيق للكلمة، يظل فاعلاً من خلال الرمزية، لأن الرمز الديني يبلغ رسالته حتى وإن غدا غير مفهوم في كليته فهماً واعياً؛ من حيث إن الرمز يتوجه إلى الكائن البشري التام، لا إلى عقله وحسب.

## بنية الرمزية المائية

قبل الحديث عن الأرض، علينا أن نبين القيم الدينية التي تنطوي عليها المياه، وذلك لسببين:

- الأول أن المياه كانت موجودة قبل الأرض (كما بين ذلك سفر التكوين «وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفّ على وجه المياه»).

- وثانيهما أننا بتحليلنا للقيم الدينية المتعلقة بالمياه، نفهم بنية الرمز ووظيفته بصورة أفضل. ثم إن الرمزية الدينية تلعب دوراً كبيراً في الحياة الدينية عند البشرية؛ إذ بفضل الرموز يصبح العالم «شفافاً»، وقابلاً لـ «إظهاره» تعالى.

ترمز المياه إلى المجموع العالمي لكل ما هو كامن (موجود بالقوة)؛ فهي الخزان الذي يحتوي جميع إمكانيات الوجود؛ تسبق كل صورة أو شكل، وتساند كل خلق. من الصور المثالية للخلق الجزيرة التي «تظهر» فجأة وسط البحر. في المقابل، يرمز الانغماس إلى النكوص إلى حالة ما قبل الشكل، والدخول في النمط غير المتميز الذي يسبق الوجود. ويكرر الخروج من الماء البادرة الكوسموغونية للتجلي المتشكل، وأما الانغماس فيساوي انحلالاً للأشكال. ولذلك انطوت رمزية المياه على الموت مثلما انطوت على الولادة الجديدة.

والاحتكاك بالماء ينطوي دائماً على ولادة جديدة، لأن الانحلال يعقبه «ولادة جديدة»، والانغماس يخصب قدرة الحياة الكامنة ويضاعفها. على الكوسموغونيا المائية تنطبق، على المستوى الأنثروبولوجي، الهيلوجينات، وهي المعتقدات التي تذهب إلى أن النوع البشري قد وُلد من المياه. وعلى الطوفان أو الفرق الدوري للمقارنات (أساطير من نوع الـ «أطلانطيد») ينطبق على المستوى البشري، على «الموت الثاني» للإنسان، أو موت المُسارّة (استلام الأسرار) بواسطة المعمودية، لكن الانغماس في المياه، سواء على الصعيد الكوسمولوجي أو على الصعيد الأنثروبولوجي، لا يساوي موتاً نهائياً، بل دخولاً عابراً في غير المتمايز، يعقبه خلق جديد لحياة جديدة أو «إنسان جديد»، تبعاً لتعلق الأمر بلحظة كونية أو بيولوجية أو سوترولوجية. من وجهة نظر البنية، «الطوفان» يقارن بـ «المعمودية»، والتطهير الجنائزي (بالماء) يقارن بالمولودين الجدد أو الحمامات الطقسية الربيعية التي تجلب الصحة والخصوبة.

تحتفظ المياه في بعض الأنظمة الدينية بوظيفتها على نحو لا يتبدل: تظهر وتولد ولادات جديدة. قدرها أن تسبق الخلق وأن تمتصه، مادامت عاجزة عن تجاوز نمط وجودها الخاص، أي أن تتجلى في «أشكال». المياه لا تستطيع أن تتجاوز شرط الموجود بالقوة؛ فالأجرام والممتلكات وكل ما هو شكل فإنما تتجلى فوق مستوى الماء، بانفصالها عنه.

نحن هنا بإزاء سمة أساسية: قدسية المياه وبنية الكوسموغونيات وقيام القيامة المائية - كل هذه لا يمكن أن يُكشف عنها جملةً واحدة

الا من خلال الرمزية المائية، التي هي وحدها «النظام» القادر على تفصيل جميع انواع الوحي الخاصة بما لا حصر له من التجليات المقدسة. هذا القانون هو، فوق كل ذلك، قانون كل رمزية: انه النظام الرمزي الذي يمنح القيمة لمختلف المعاني التي تنطوي عليها التجليات المقدسة. «مياه الموت»، مثلاً، لا تكشف عن معناها العميق الا بمقدار ما تعرف بنية الرمزية المائية.

## التاريخ المثالي للمعمودية

لم يَفُتْ آباء الكنيسة الأولين ان يستفيدوا من قيم معينة سابقة على المسيحية، قيم ذات طابع عالمي انطوت عليها الرمزية المائية، تتصل بالوجود التاريخي للمسيح، مع احتمال إغناء المسيحية لها بالمعاني الجديدة. عند ترتوليان (في المعمودية ٣ - ٥) كان الماء «اول مقر للروح الإلهي الذي آثره يومئذ على العناصر الأخرى... انه هذا الماء الأول الذي وهب الكائن حياته لكيلا يندesh اذا كانت معمودية المياه تنتج الحياة هي ايضاً... جميع انواع المياه، بسبب الامتياز القديم الذي وُسمت به منذ البدء، تشارك اذن في سر تقديسنا، ما ان يناديه الله. وما ان يناديه الله حتى يهبط الروح القدس من السماء ويقف على المياه التي يقدها بحضوره؛ بذلك تتقدس، وتشيع بدورها في قوة التقديس... الذين كانوا يحملون الدواء لأدواء الجسد باتوا الآن يَترثون النفس من أدوائها، والذين كانوا يحققون السلام الدنيوي، صاروا الآن يحققون الحياة الأبدية...».

بالانغماس في الماء يموت «الإنسان القديم» ويلد كائناً جديداً بحياة جديدة. وقد عبر عن هذه الرمزية خير تعبير جان كريزوستوم الذي كتب، وهو في صدد الكلام على تعدد القيم الرمزية التي تشتمل عليها المعمودية، يقول: «إنها تمثل الموت والقبر، الحياة والقيامة. . . عندما نغطس رأسنا في الماء كما في قبر، يغوص الإنسان القديم ويدفن كله؛ فإذا خرج من الماء، خرج مع الإنسان الجديد في الوقت نفسه».

ان تفسيرات ترتوليان وجان كريزوستوم تنسجم تماماً مع بنية الماء الرمزية. ومع ذلك يدخل في التقويم المسيحي للمياه عناصر معينة جديدة ذات صلة بـ «تاريخ»، هو التاريخ المقدس. قبل كل شيء، هناك تقويم المعمودية بما هي نزول في هاوية المياه للصراع مع هَوْلَة البحر. ونموذج هذا النزول نزول المسيح في نهر الأردن الذي كان نزولاً في مياه الموت في الوقت نفسه. كتب قيريل المقدسي: «التنين بهيموت الذي ذكره أيوب كان في المياه وقد تَلَقَّف الأردن في فيه، وكما كان لابد من سحق رأس التنين، كذلك إذ نزل يسوع في المياه شدَّ وثاق القوي لكي تكون لنا قدرة على السير فوق العقارب والأفاعي».

ثم يأتي بعد ذلك تقويم المعمودية من حيث هي تكرار للطوفان. يذهب جوستان إلى ان المسيح، بما هو نوحُ الجديد، قد أصبح الجَدُّ الأعلى لعرق بشري جديد. كذلك ان الطوفان يصور النزول إلى الأعماق المائية كما يصور المعمودية. ولذلك كان الطوفان صورة لما سوف تحقِّقه المعمودية. . . وكما ان نوحاً واجه بحر الموت



الذي قُضي فيه على البشرية الخاطئة ثم خرج منه ظافراً، كذلك ينزل المعمد الجديد في نفس البركة المعمدانية لمنازلة تنين البحر والخروج منها ظافراً<sup>(١)</sup>.

لكن المسيح يوضع ايضاً في مضاهاة مع آدم . والمضاهاة بين آدم والمسيح تحتل مكانة كبيرة في لاهوت القديس بولس . يؤكد تروتيان : «بالمعمودية يستعيد الإنسان شبهه بالله» (في المعمودية، ٥) . وعند قيريل ان «المعمودية ليست تطهيراً من الخطايا ونعمة للتبني وحسب، وإنما هي ايضاً نموذج مضاد لآلام المسيح» . والعُرْي المعمداني ينطوي على مغزى طقسي وميتافيزيقي في نفس الوقت : «انه التخلي عن الملابس القديمة، ملابس الفساد والخطيئة التي يتجرد منها المعمد اقتداءً بالمسيح، وهي الملابس التي قد ارتداها آدم بعد الخطيئة<sup>(٢)</sup>»، لكنه (اي العُرْي) ايضاً العودة إلى البراءة البدائية، إلى حالة آدم قبل السقوط . يكتب قيريل : «أي هذا الشيء العجيب ! كنت عارياً تحت انظار الجميع دون ان تشعر بالخجل من ذلك . وهأنذا تحمل فيك صورة آدم الأول الذي كان عارياً في الفردوس دون خجل من عُريه»<sup>(٣)</sup>.

بالاستناد إلى هذه النصوص القليلة، يصبح بوسعنا ان نفهم

---

(1) J. DANIELOU, *Sacramentum Futuri* (Paris, 1950, P. 65

(2) J. DANIELOU, *Bible et Liturgie*, P. 61 sq.

(3) Voir aussi d' autres textes reproduits dans J. DANIELOU, *Bible et Liturgie*, P. 56 sq.

معنى التجديدات التي ادخلتها المسيحية : من جهة ، كان الآباء يفتشون عن مطابقات بين العهدين القديم والجديد . ومن جهة ثانية ، يبرهنون على ان يسوع قد أنجز حقاً الوعود التي قطعها الله لبني اسرائيل . لكن من المهم ان نلاحظ ان هذه التقويمات الجديدة التي أضفيت على الرمزية المعمدانية لا تتعارض مع الرمزية العائدية المنتشرة في انحاء العالم . كل شيء نعود فنجد في المعمودية : نوح والطوفان لهما نظير فيما لا حصر له من الأخبار ، في الكارثة التي وضعت حداً للبشرية («المجتمع») باستثناء رجل واحد يصبح الجد الأعلى الميطيقي لبشرية جديدة . «مياه الموت» هي اللازمة التي نجدها في جميع الأساطير الشرقية القديمة في آسيا وأفريقيا وأوقيانوسيا . فالماء «تقتل» بامتياز : تحل الشكل وتلغيه . ان هذا بالضبط هو ما يفسر لنا لماذا هي غنية بـ «الأجرام أو الجرائم» المبدعة . ورمزية العُري المعمداني ليست امتيازاً للتقليد اليهودي - المسيحي . العُري الطقسي يساوي التمام والامتلاء ؛ «الفردوس» ينطوي على غياب «الملابس» ، أي غياب «الاهتراء» (صورة نموذجية للزمان) . كل عُري طقسي فإنما ينطوي على عُري غير زماني ، على صورة فردوسية .

هُولات الهاوية نجدها في عدد من التقاليد : الأبطال والمُسارون (مستلمو الأسرار) ينزلون إلى حضيض الهاوية لمنازلة هُولة البحر ؛ انها تجربة استشرارية نموذجياً . صحيح ان تاريخ الأديان يخالف فيما بين الروايات : يقوم التنين احياناً بحراسة «كنز» ، والكنز صورة حسية

للقدسي ، للحقيقة المطلقة . الانتصار الطقسي (الاستمراري) على الهولة - المحارس يساوي الانتصار على اللاأخلاقية . المعمودية بالنسبة للمسيحي ، سر من أسرار ديانته لأن المسيح اسمها . لكن المسيحي ، اذ يمارس طقس المعمودية ، لا يقل عن غيره استرجاعاً لطقس التجربة الاستمرارية (القتال مع الهولة) ، والموت والانبعاث الرمزيين (ولادة الإنسان الجديد) . نحن هنا لا نريد ان نقول ان اليهودية او المسيحية «استعارت» مثل هذه الأساطير والرموز من ديانات الأقوام المجاورة ؛ ان هذا ليس بالأمر الضروري : اليهودية ورثت اشياء مما قبل التاريخ ، ومن تاريخ ديني طويل كانت فيه جميع هذه الاشياء موجودة . كذلك ليس من الضروري ان يكون هذا الرمز أو ذاك قد ظلت اليهودية تحتفظ به «متيقظاً» بتمامه . يكفي ان نظل مجموعة من الصور حية ، حتى ولو كان ذلك على نحو غامض ، منذ ما قبل الأزمنة الموسوية . فهذه الصور ، او هذه الرموز ، كانت قادرة على استرجاع تأثير ديني قوي ، في أي لحظة .

## عالمية الرموز

ادرك بعض آباء الكنيسة البدائية اهمية المطابقة بين الرموز التي تطرحها المسيحية وبين الرموز الشائعة بين بني البشر . فهذا تيوفيل الأنطاكي ، وهو يخاطب من ينكرون قيامة الأموات ، يحيلهم إلى العلامات techméria التي وضعها الله في متناولهم في الإيقاعات الكونية : الفصول الأربعة ، الليل والنهار : «أليس تبعث البذور

والثمار؟»، ويرى كليمانس الرومي ان «النهار والليل دليلان على البعث. الليل ينم، والنهار يفيق؛ النهار يذهب، والليل يأتي»<sup>(١)</sup>.

ويذهب المتكلمون المسيحيون إلى ان الرموز محملة بالرسالات، فهي تكشف عن القدسي في الإيقاعات الكونية. والوحي الذي جاء به الإيمان لا ينفي ما اشتملت عليه رموز ما قبل المسيحية من معان: كل ما فعله الإيمان الجديد أن أضاف إليها قيمة جديدة. طبعاً، عند المؤمن، هذا المعنى الجديد يغطّي على المعاني الأخرى، فهو وحده الذي يمنح الرمز قيمته، ويجعل منه وحياً. فالمهم هو قيامة المسيح، لا العلامات التي يمكن قراءتها في الحياة الكونية. ومع ذلك، يبقى التقويم الجديد مشروطاً نوعاً ما ببنية الرمزية نفسها. حتى ليتمكن القول ان الرمز المائي كان ينتظر اكتمال معناها العميق بالقيم الجديدة التي جاءت بها المسيحية.

الإيمان المسيحي معلق على وحي تاريخي: انه تجسد الله في الزمن التاريخي الذي يضمن، في نظر المسيحي، مفعولية الرموز. لكن الرمزية المائية العالمية لا تَبْطُل ولا يُطْمَس معناها بفعل التفسيرات التاريخية (اليهودية - المسيحية) للرمزية المعمدانية. بعبارة أخرى، التاريخ لم يفلح في تعديل بنية رمزية قديمة تعديلاً جذرياً. التاريخ يضيف باستمرار معاني جديدة، لكن هذه لا تقضي على بنية الرمز.

نستطيع ان نفهم الوضع الذي أتينا على وصفه توّاً اذا اخذنا

(1) Cf. L. BEIRNAERT, «La dimension mythique dans le sacramentalisme chrétien» (Eranos - Jambuch, XVII, 1949), P. 279.

بالحسبان ان العالم ، بالنسبة للإنسان الديني ، يتكشف دائماً عن قيمة تعلو على الطبيعة ، عن نمطية من القدسي . وعنده أن كل جزء من الكون له «شفاف» . يبين نمط وجوده الخاص عن بنية خاصة من الكائن ، وبالتالي ، عن بنية خاصة من القدسي . يجب الا ننسى ابدأ ان القدسية ، عند الإنسان الديني ، هي تجل تام من الكائن . ان تجليات القداسة الكونية هي تجليات بدئية نوعاً ما: لقد حدثت في ابعد الماضي الديني للبشرية ، ولم تغلح التجديدات التي جاء بها التاريخ في عصور لاحقة في القضاء عليها .

## الأرض - الأم

كان احد انبياء الهنود ، واسمه سُمُوَهْلَا ، وكان شيخ قبيلة «وانابوم» ، يرفض ان يعمل في الأرض . كان يرى ان من الخطيئة ان يجرح أو يمزق أو يخذش «أمننا المشتركة» بالأشغال الزراعية . وكان يقول : «تريدون مني ان أحرث الأرض؟ هل أتناول سكيناً أغمدتها في صدر أمي؟ كذا فعلت ذلك ومِتَ فهي لن تضميني إلى صدرها . تريدون مني ان احفرها وأرفع الحجارة؟ هل علي ان اسلخ جلدها حتى أصل إلى عظامها؟ انا ان فعلت ذلك لن يكون في وسعي ان ادخل في جسدها لكي أولد من جديد . تريدون مني ان أقص العشب والحشائش وأبيعه لكي اصير موسراً كالرجل الأبيض؟ لكن كيف أجرو على قص شعر أمي؟»<sup>(1)</sup> .

(1) James Mooney, -The Ghost - Dance religion and the Sioux Outbreak of 1890..

قيلت هذه الكلمات قبل اقل من قرن، الا انها تأتينا من أزمنة بعيدة جداً. والعاطفة التي نستشعرها لدى سماعنا لها تتصل بما توحيه لنا على وجه الخصوص الصورة البدئية للأرض - الأم في جذة وعفوية لا نظير لهما. انها Terra Mater او Tellus Mater المعروفة في ديانات البحر المتوسط، التي تلد جميع الكائنات. جاء في الترنيمة الهوميرية: إلى الأرض سوف أغني. إلى الأرض، الأم العالمية ذات القواعد المكيئة، الجذة المحترمة التي تُطعم كل ما يوجد على ثراها. . . البك يعود الفضل في هبة الحياة للفانين، مثلما يعود إليك أمر استردادها منهم. . . . ويشي أخيل على الأرض التي «تلد جميع الكائنات» ثم تعود فتتلقى منهم الجرثومة المخصصة.

لا يقول لنا سُمُوهاً كيف وُلد الناس من الأم الأرضية. لكن بعض الأساطير الأميركية تبيّن لنا كيف حدثت الأشياء في الأصل، في ذلك الزمان: عاش الناس الأولون حقبة معينة في حضن أمهم، أي في باطن الأرض، في أحشائها. هناك في الأعماق عاشوا حياة شبه بشرية، وكانوا بنوع ما أجنة لم يكتمل تكوينها. هذا، على الأقل، ما يؤكدُه هنود «ليني ليناب» او «ديلاوار» الذين كانوا يسكنون بنسلفانيا فيما مضى. وتروي أساطيرهم أن الخالق، بالرغم من أنه كان هياً لهم، على سطح الأرض، جميع الأشياء التي ينعمون بها حالياً، الا أنه قرر مع ذلك أن يبقى الناس حقبة معينة مختفين في بطن أمهم الأرضية حتى ينموا بصورة أفضل وينضجوا. وهناك أساطير اميركية - هندية أخرى تتحدث عن زمن قديم كانت فيه الأرض - الأم تلد

• هذه الصورة نجدها في كل مكان، تحت اشكال مختلفة لا حصر لها.

الادميين على نفس النحو الذي تلد فيه هذه الايام الجنّيات (= الشجيرات) والقصب<sup>(1)</sup>.

ولادة الأرض للآدميين اعتقاد شائع على مستوى عالمي<sup>(2)</sup>. في عدد من اللغات يُسمى الإنسان: «وليد الأرض». ويُعتقد ان الأولاد «يأتون» من أعماق الأرض والكهوف والحفر والشقوق، لكن أيضاً من الينابيع والسواقي. وما زالت معتقدات مماثلة باقية حيّة في أوروبا تحت غطاء الأسطورة أو الخرافة أو حتى مجرد المجاز. كل اقليم، وتكاد كل مدينة وقرية تعرف صخرة أو نبعاً «يجلب» الأولاد: هؤلاء هم الكندر برونن والكندر تايشي والبوين كويلن، الخ. حتى الأوروبيون في زماننا لم يزل عندهم شعور غامض بتواحد صوفي مع أرض المولد؛ إنه الخبرة الدينية للأصالة الأرضية: يحس الإنسان نفسه كائناً من «اناس المكان»؛ نحن هنا بلّزاء شعور بالبنية الكونية يتجاوز شعور الانتماء إلى العائلة والسلف تجاوزاً كبيراً.

في الإنسان رغبة في العودة إلى الأرض - الأم عند دنوّ أجله، وأن يُدفن في الأرض التي ولد فيها. تقول الريكفيدا: «ازحف نحو الأرض، أمك!» (X, XVIII, 10). وجاء في الأثارفايدا: «انت، الذي أنت الأرض (التراب)، أضعك في الأرض (التراب)». ويقال في اثناء الاحتفالات الجنائزية في الصين: «ليعد اللحم والعظم ثانية إلى التراب (الأرض)». وتكشف الكتابات المنقوشة على القبور الرومانية

(1) Cf. Mythes, Râves et Mystères (Gallimard, 1957). PP. 210 sq.

(2) Voir A. DIETRICH, Mutter Erde (3e éd. Leipzig - Berlin, 1925); B. Nyberg, Kind und Erde (Helsinki, 1931).

عن خوف الميت ان يدفن في غير أرضه : «هنا كانت ولادته، وهنا دُفن»، كما تكشف عن الفرحة بالعودة إلى الوطن : «هنا حيث كانت ولادته، وإلى هناك كانت رغبته في العودة».

## وضع المولود على الأرض

هذه الخبرة الأساسية - التي ليست الأم البشرية فيها الا تمثيلاً للأم الأرضية الكبرى - أتاحت نشوء عادات لا حصر لها، ومنها، على سبيل المثال، الولادة على الأرض، وهو طقس نجده تقريباً في جميع انحاء العالم، من أستراليا إلى الصين، ومن افريقيا إلى اميركا الجنوبية. اما عند الإغريق والرومان، فهذه العادة كانت انقرضت بحلول الأزمنة التاريخية؛ لكن ليس من شك في انها كانت موجودة في الماضي البعيد: فهناك تماثيل للإلهات الولادة تمثلهن جاثيات على ركبهن، تماماً في وضع المرأة التي تلد على مستوى الأرض. وفي النصوص الديموطيقية المصرية نجد أن تعبير «الجلوس على الأرض» معناه «وضع المولود».

نستطيع ان نفهم، في غير عناء، ما تنطوي عليه هذه العادة من مغزى ديني: الولادة والتوليد ترجمتان مصفرتان لفعل نموذجي قامت به الأرض؛ والأم البشرية لم تفعل سوى أنها تحاكي وتكرر هذا الفعل البدئي: ظهور الحياة في حضن الأرض. وتبعاً لذلك، يترتب عليها ان تكون على علاقة مباشرة مع الأم العظمى، لكي تعمل بهدي منها على إتمام هذا السر الذي هو ولادة حياة جديدة، ولكي تتلقى منها معونتها المباركة وتجد عندها الحماية الأمومية.



وهناك عادة أخرى أوسع انتشاراً وهي أن يُسَجَّى المولود الجديد على الأرض. وهذه العادة ما زالت موجودة في بعض بلدان أوروبا حتى يومنا هذا: ما إن يُحْمَمَ الوليد ويُقْمَطَ حتى يُسَجَّى على مستوى الأرض، ثم يحمله أبوه علامة على اعترافه ببنوته. في الصين القديمة «يُسَجَّى الميت على الأرض كما يُسَجَّى الطفل الوليد... للولادة أو الموت، للدخول في أسرة الأحياء أو في أسرة الأسلاف (وللمخرج من أحدهما إلى الأخرى)، ثمة عَتَبَةٌ مشتركة هي أرض المولد... عندما يُسَجَّى المولود الجديد أو الميت على الأرض، فإن عليها أن تقول إن كانت الولادة أو الوفاة صحيحة، أن كان يجب اعتبار أحدهما أو الأخرى أمراً مقررًا ومقتعاً مع القواعد... يتضمن طقس تسجية الوليد على الأرض مواحدة جوهرية بين «العرق» والأرض. وترجم هذه المواحدة الشعور بالانتماء للأصل الذي هو أقوى من المشاعر التي يمكننا تلمسها في بدايات التاريخ الصيني. أن المواحدة بين بلد وأهليه لها اعتقاد بلغ من العمق حتى تغلغل إلى قلب المؤسسات الدينية ومؤسسات الحقوق العامة»<sup>(1)</sup>.

وكما يوضع الطفل على الأرض فور ولادته لكي تقوم أمه الحقيقية بإضفاء صفة الشرعية عليه وضمان الحماية الإلهية له، كذلك يوضع الأولاد والرجال الناضجون على الأرض لكي يدفنوا فيها إذا ألم بهم مرض. هذا الطقس يساوي ولادة جديدة. فالدفن الرمزي، جزئياً

(1) MARCEL GRANET, «Le dépôt de l'enfant sur la sol» (Revue Archéologique, 1922; Etudes Sociologique sur la Chine, Paris, 1953, P. 159-202), P. 192 sq., 187 sq.

أو كلياً، له نفس القيمة السحرية - الدينية التي للغطس في الماء، المعمودية. فيه يولد المريض ثانية: يولد من جديد. وتحفظ العملية بنفس التأثير عندما يتعلق الأمر بمحو خطيئة فادحة أو شفاء من مرض أصاب الروح (هذا الأخير يكشف، بالنسبة للجماعة، عن نفس الخطر الذي تكشف عنه الجريمة أو المرض الجسماني). يوضع الصياد في برميل أو في حفرة في الأرض، وعندما يخرج منها يقال انه «وُلد مرة ثانية، من حضن أمه». من هنا الاعتقاد الاسكندنافي بأن الساحرة يمكنها ان تتخلص من اللعنة الأبدية إذا دفنت حية وذُرِيت عليها الحبوب وحصد الزرع المبذور على هذا النحو<sup>(1)</sup>. واستلام الأسرار، أو المسارة، يتألف من موت وانبعاث طقسيين. كذلك بصار، لدى أقوام بدائية كثيرة، إلى «قتل» المستجد ودفنه في حفرة وتغطيته بورق الشجر. وعندما ينهض من القبر، يعتبر إنساناً جديداً، لأنه وُلد مرة ثانية، وكانت ولادته مباشرة من الأم الكونية.

## المرأة والأرض والخصوبة

اذن، تتوحد المرأة صوفياً مع الأرض، وتبتدئ الولادة، على الصعيد البشري، شكلاً آخر من الخصوبة الأرضية. جميع الخبرات الدينية التي لها صلة بالخصوبة والولادة ذات بنية كونية. ان قدسية المرأة متوقفة على قداسة الأرض. وللخصوبة الأنثوية نموذج كوني هو

(1) A. DIETERICH, *utter Erde*, P. 28 sq.; B. NYBERG, *Kind und Erde*, P. 150.

نموذج الأرض - الأم Terra Mater ، الأم الكونية - Universelle gen-  
etrix

في بعض الديانات، يعتقدون ان الأرض - الأم قادرة على  
الحبل بمفردها، بدون مساعدة من زوج Parédre. وإننا لنجد آثاراً من  
مثل هذه الأفكار القديمة في اساطير الولادة العذرية - Parthénogen-  
ése المنسوبة إلى إلهات البحر المتوسط. يقول هسيود، ان «غايا»  
(الأرض) ولدت اورانوس، كائناً مساوياً لها، قادراً على تغطيتها كلها.  
وهناك إلهات إغريقيات أخرى وَلَدْنَ بدون مساعدة من آلهة ذكور.  
ان هذا تعبير ميطيقي عن الاكتفاء الذاتي والخصوبة التي تتصف بها  
الأرض - الأم. وتتفق مع هذه المفاهيم الميطيقية الاعتقادات التي  
تتصل بالخصوبة العفوية عند المرأة وقواها السحرية - الدينية الخفية  
التي تحدث تأثيراً حاسماً في حياة النبات. الظاهرة الاجتماعية  
والثقافية التي تُعرف باسم «المطريكية» matriarcat مرتبطة باكتشاف  
زراعة النباتات الغذائية التي زرعها المرأة. فقد كانت المرأة أول من  
زرع النباتات الغذائية. فأصبحت هي المالكة للأرض وما تنتجه من  
محاصيل. فالمكانة السحرية - الدينية التي احتلتها المرأة والسيطرة  
الاجتماعية التي تمتعت بها لها نموذجها الكوني المتمثل في رمزية  
الأرض - الأم.

وفي ديانات أخرى، كان الخلق الكوني، أو على الأقل إتمامه،  
نتيجة لزواج مقدس بين إله السماء والأرض - الأم. هذه الأسطورة  
الكوسموغونية ذات انتشار واسع، ونجدها خصوصاً في أوقيانوسيا  
واندونيسيا، ونجدها أيضاً في آسيا وأفريقيا والأميركتين. والأسطورة

الكوسموغونية هي، كما رأينا، الأسطورة المثالية بامتياز: تقوم بدور نموذج للسلوك البشري. ولذلك يعتبر الزواج محاكاة للزواج المقدس الكوني. في (البراهمادارنايكا اوبانيشاد) يقول الزوج لزوجته: «انا السماء وأنت الأرض!». وفي (الأثارفايدا) يتمثل الزوجان في السماء والأرض. وفي (الإنيادة) يحتفل ديدون بزواجه من اينيا Enée وسط عاصفة شديدة، ويتفق اتحادهما مع اتحاد العناصر: السماء بضائع زوجته (الأرض) مُريقاً فيها مطر الإخصاب. وعند الإغريق، تحاكي طقوس الزواج مثال زيوس الذي يتخذ جلسة مع هيرا. اذن، الأسطورة الإلهية هي النموذج المثالي للاتحاد البشري. لكن ثمة جانب آخر من الضروري إبرازه: البنية الكونية لطقس الزواج والسلوك الجنسي الذي يسلكه الإنسان. بالنسبة للإنسان غير الديني في المجتمعات الحديثة، هذا البعد الكوني، وفي نفس الوقت القدسي، من المعاشرة الزوجية، من الصعب عليه ان يفهمه. لكن يجب الانسى ان العالم، بالنسبة للإنسان الديني في المجتمعات القديمة، يتبدى محملاً بالمعاني. وتكون هذه المعاني ملفوزة احياناً، لكن الأساطير جاهزة لمساعدة الإنسان على حل رموزها. وسوف نرى ان الخبرة البشرية في مجموعها قابلة لأن تكون مماثلة للحياة الكونية، وبالتالي قابلة لأن تنقدس، لأن الكون هو أعلى ما خلقته الآلهة.

والدعارة الطقسية التي تجري لمنفعة المواسم الزراعية لها هي ايضاً نموذجها الإلهي: الزواج بين الإله المخصب والأرض - الأم. الخصوبة الزراعية يحرضها جنون جنسي لا حدود له. من وجهة نظر معينة، تتوافق الدعارة مع حالة اللاتمايز (العماء) التي كان عليها

العالم قبل خلق الخلق . كذلك أن بعض مهرجانات السنة الجديدة يتألف من طقوس دعارة . فالاختلاف والفوضى ؛ وكذا التحلل من القيود الاجتماعية والأعياد الزحلية - كل هذا يرمز إلى انكفاء في حالة اللاشكل التي سبقت خلق العالم . وإذا كان الأمر يتعلق بـ «خلق» على مستوى الحياة النباتية ، يتكرر هذا المشهد الكوسمولوجي - الطقس في كل موسم ، لأن الموسم الجديد يساوي «خلقاً» جديداً . ان فكرة التجديد - التي رأيناها في طقوس العالم الجديد حيث كان لها صلة في نفس الوقت بتجديد الزمان وتجديد ولادة العالم - نجدها في مشاهد الدعارة الزراعية . هنا أيضاً الدعارة المنفلتة انما هي انكفاء في الليل الكوني ، إلى حالة ما قبل تشكل الأشكال ، في «المياه» ، من أجل ضمان ولادة جديدة كلية للحياة ، وبالتالي خصوبة الأرض ووفرة المحاصيل .

### رمزية الشجرة الكونية والديانات النباتية

رأينا ان الأساطير والطقوس المتعلقة بالأرض - الأم تعبر بصفة خاصة عن افكار الخصوبة والثراء . وهي تتعلق بأفكار دينية ؛ ذلك لأن المظاهر الكثيرة من الخصوبة الكونية تكشف ، على وجه الإجمال ، عن سر الولادة وخلق الحياة . وعند الإنسان الديني ان ظهور الحياة هو السر المركزي للعالم . هذه الحياة «تأتي» من جهة ليست هي هذا العالم ، ثم تنسحب من هذه الدنيا و«تذهب» إلى عالم آخر ، تمتد بصورة خفية إلى مكان مجهول ، لا يدركه أكثر الأحياء . وهو لا يرى الحياة البشرية تجلياً قصيراً في الزمان ، بين عديمين ، وإنما يراها

مسبوقة بوجود بَدْرِيّ Préexistence يليه وجود دَبْرِيّ Postexistence لا يُعرف الا القليل عن هاتين المرحلتين اللتين تتعديان المرحلة الأرضية من الحياة البشرية، لكن يُعرف انهما موجودتان مع ذلك. عند الإنسان الديني، الموت لا يضع، اذن، حداً نهائياً للحياة: ليس الموت الا نمطاً آخر من الوجود البشري.

كل هذا نجده «رموزاً» في الإيقاعات الكونية: وليس علينا الا ان نفلك رموز ما «يقوله» الكون بواسطة انماط وجوده الكثيرة، لكي نفهم سر الحياة. والحال ان شيئاً واحداً يبدو لنا جلياً: الكون جهاز حي يتجدد دورياً.

ثم ان سر ظهور الحياة التي لا تنفذ متواحد بتجدد الإيقاع الكوني. لهذا السبب تخيل الإنسان القديم الكون على هيئة شجرة ضخمة: ان نمط وجود الكون، وفي المحل الأول قدرته على توليد نفسه بلا نهاية، قد عبّر عنه رمزياً بحياة الشجرة.

يجدر بنا ان نبين مع ذلك ان الأمر لا يتعلق بمجرد انتقال صورة من صعيد العالم الأصغر إلى صعيد العالم الأكبر. الشجرة، بما هي «شيء طبيعي»، لا يمكنها ان توحى بكلية الحياة الكونية: على صعيد الخبرة الدنيوية، ان نمط وجودها لا يشتمل على نمط وجود الكون في جميع تعقيداته. وعلى صعيد هذه الخبرة، لا تكشف الحياة النباتية الا عن تعاقب «الولادة» و«الموت» انها الرؤية الدينية للحياة هي التي تتيح لنا «فك رموز» ما ينطوي عليه الإيقاع النباتي من معان أخرى، وفي المقام الأول الأفكار المتعلقة بالولادة الجديدة والشباب الدائم والصحة والخلود. الفكرة الدينية المتعلقة بالحقيقة المطلقة انما يُعبّر

عنها، في جملة صور أخرى كثيرة، في هيئة «ثمرة عجيبة» تمنح في وقت واحد الخلود والمعرفة الكلية والقدرة الكلية، وهي الثمرة القادرة على تحويل البشر إلى آلهة. لم تكن الشجرة هي الصورة الوحيدة التي وقع عليها الاختيار لكي ترمز إلى الكون، وإنما لكي تعبر أيضاً عن الحياة والشباب والخلود والحكمة، لقد عرف تاريخ الأديان، إلى جانب الأشجار الكونية، كشجرة «باغ درازيل» في الميثولوجيا الجرمانية، عرف أيضاً أشجاراً للحياة (مثلاً، في وادي الرافدين)، وللخلود (آسيا، العهد القديم)، وللحكمة (العهد القديم)، وللشباب (وادي الرافدين، الهند، إيران)، الخ. بعبارة أخرى، أصبحت الشجرة تعبر عن كل ما يعتبره الإنسان الديني حقيقةً ومقدساً بامتياز، وعن كل ما يعلم أن الآلهة تملكه بحكم طبيعتها الخاصة ولا سبيل إلى الوصول إليها إلا في حالات نادرة، ومن يصلون إليها إنما هم أفراد ممتازون، أبطال أو أنصاف آلهة. كذلك أن أساطير البحث عن الخلود أو الشباب تدور حول شجرة ثمرها ذهب أو ورقها عجائبي، وهي شجرة توجد «في بلاد بعيدة» (في الحقيقة، في العالم الآخر)، يحرسها هُوَلة *monstre* (عنقاء، ثنين، ثعبان). ولكي يُجنى ثمرها، يجب التصدي للهولة وقتله، وبالتالي الخضوع لتجربة مسارة من النوع البطولي. ومن يظفر بالثمرة يحصل «بالقوة» على الشرط الذي يتجاوز الشرط البشري، شبه الإلهي، من الشباب الدائم والمنعة والقدرة الكلية.

وليس كما في مثل هذه الرموز الشجرية الكونية، كشجرة الخلود أو المعرفة، ما تعبر القيم الدينية المستمدة من النبات عن نفسها بأقصى ما يمكنها من القوة والوضوح. بعبارة أخرى، الشجرة المقدسة

أو النباتات المقدسة تتكشف عن بنية لا تتضح في مختلف انواع النباتات المعروفة. وكم بينا من قبل، ان القدسية هي التي تكشف عن اعماق بُنى العالم. فالكون يتمثل «رمزاً» على نحو فريد في منظور ديني. ان الإيقاعات النباتية، بالنسبة للإنسان الديني، تكشف في وقت واحد عن سر الحياة وسر الخلق وسر التجدد والشباب والخلود. ولعله يمكننا القول ان جميع الأشجار والنباتات التي تعتبر مقدسة (مثلاً، جنباً «أشباتا» في الهند) تدين بموقعها الممتاز إلى كونها تجسد النموذج البدئي، الصورة المثالية، للنبات. من ناحية أخرى، ان ما يجعل نبتة ما تلقى العناية والزراعة هو قيمتها الدينية. ويذهب بعض المؤلفين إلى ان جميع النباتات التي نزرعها في الوقت الحاضر كانت تعتبر في الأصل نباتات مقدسة<sup>(1)</sup>.

ان ما نسميه ديانات النبات لا تتوقف على خبرة دنيوية، «خبرة للطبيعة»، ذات صلة، مثلاً، بالربيع ويقظة الحياة النباتية. على العكس، ان الخبرة الدينية القائمة على تجدد العالم (البدء الثاني والخلق الثاني) هي التي تسبق وتبرر تقويم الربيع بما هو انبعاث للطبيعة. ان سر التجدد الدوري للكون هو الذي أسس الأهمية الدينية للربيع. من ناحية ثانية، في ديانات النبات، ليست ظاهرة الربيع الطبيعية ولا ظهور النبات هو الذي يهم، وإنما هو العلامة التي تمهد لإعلان السر الكوني. ففي بعض الديانات، تقوم مجموعات من

(1) AUDRICOURT et L. HÉDIN, L'Homme et les Plantes Cultivées (PARIS, 1946), P.



الشباب بزيارة منازل القرية بصورة احتفالية، ويظهرون للناس غصناً أخضر وياقة زهر وعصفوراً . ويعتبرون هذا علامة على الانبعاث الوشيك للحياة النباتية، وشهادة على تحقق السر، وأن مقدم الربيع لن يتأخر. القسم الأكبر من هذه الشعائر يحدث قبل مقدم الظاهرة الطبيعية المتمثلة في الربيع .

## نزع القدسية عن الطبيعة

سبق ان قلنا ان الطبيعة، عند الإنسان الديني، ليست «طبيعية» حصراً. فاختبار الطبيعة، منزوعاً عنها القدسية جذرياً، هو اكتشاف حديث. وما زال هذا الاختبار لا يدركه الا قلة قليلة من المجتمعات الحديثة. اما سائرهما فما زالت الطبيعة تتبع لها «سحراً» و«سراً» و«جلالاً»، حيث يمكننا تتبع آثار قيم دينية قديمة. ما من إنسان حديث، مهما كانت درجة تدينه، الا ويشعر بـ «سحر الطبيعة». ليس المقصود من ذلك ما يخلعه عليها من قيم جمالية أو رياضية أو صحية وحسب، وانما هو أيضاً شعور يشوبه شيء غامض يصعب تحديده، لم يزل يميز فيه ذكرى من خبرة دينية متدنية الدرجة.

ليس من الأمور القليلة الأهمية ان نبين، مستعينين بمثال محدد، ما طرأ على القيم الدينية من تحوير وانحطاط. وقد عثرنا على هذا المثال في الصين وذلك لسببين: اولاهما، ان في الصين، كما في الغرب، تم نزع القدسية عن الطبيعة على يد فئة قليلة هي فئة المتعلمين. وثانيهما، ان سياق نزع القدسية، في الصين كما في

جميع الشرق الأقصى ، لم يصل ابداً إلى حدّه الأخير . فـ «التأمل الجمالي» في الطبيعة لم يزل يحتفظ بمهابة دينية حتى عند أكثر المتعلمين حدقةً .

منذ مطلع القرن السابع عشر أصبح تحويل الحداثق إلى احواض «موضة» عند فئة المتعلمين الصينيين . وهي احواض يملؤها ماءً ويجعلون في وسطها بضع صخرات ومعها شجرات قزماء وأزهار ، وغالباً نماذج بيوت مصغرة ، و«باغودات» ، وجسور وتماثيل بشرية . وتسمى هذه الصخور «جبالاً مصغرة» بالأنامية ، أو «جبالاً صناعية» بالصينية - الأنامية . ونلاحظ ان هذه التسميات نفسها تتكشف عن معنى كوسمولوجي : فالجبل يرمز إلى الكون ، كما تقدم معنا .

لكن هذه الحداثق المصغرة ، التي أصبحت من الأشياء المفضلة عند الجماليين ، قد كان لها تاريخ طويل ، بل يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ ، اذ تبدى عن شعور ديني عميق بالعالم . وكانت سوابقها عبارة عن احواض ذات ماء معطر يمثل البحر ، والغطاء المرفوع فوقها يمثل الجبل . البنية الكونية لهذه الأشياء واضحة ، والعنصر الصوفي مائل ايضاً ، ذلك لأن الجبل الذي في وسط البحر يرمز إلى جزر السعداء ، وهي نوع من الفردوس يحيا فيه الخالدون من الطاوتين . الأمر يتعلق اذن بعالم منعزل ، عالم مصغر ، ينشئه الإنسان في بيته ، يساهم فيه مع قواه الخفية المتجمعة ، بغية إعادة الانسجام مع العالم عن طريق التأمل . وكان الجبل تجعل فيه فجوات ، وقد لعب فولكلور الفجوات دوراً هاماً في بناء الحداثق المصغرة . والفجوات كهوف سرية ، يقيم فيها الخالدون من أتباع الطاو ، حيث يجري طقس

المسارّة. وتمثل عالماً فردوسياً، ولذلك كانت ذات مداخل صعبة على من يريد ولوجها (رمزية «الباب الضيق»)، التي سوف نعود إليها في الفصل القادم).

لكن كل هذا المجمع (ماء، شجر، جبل، مغارة) الذي لعب هذا الدور الكبير في الطاوية لم يكن غير تطوير لفكرة دينية أقدم منها: فكرة الموقع التام الذي يتألف من جبل وحوض ماء ومكان منعزل. هذا الموقع يتصف بالكمال، لأنه في نفس الوقت عالم مصغر وفردوس، مصدر الغبطة ومكان الخلود. والمنظر الكامل - جبل وحوض ماء - لم يكن غير «المكان المقدس» المعرق في القدم، حيث كان فتيان الصين وفتياتها يتقابلون في كل ربيع لكي يرتلوا الأناشيد الطقسية بالتناوب، وقيموا مباريات الغزل. ولعلنا نستطيع ان نخمن ما تعاقب على هذا المكان المقدس من حيث ما أضفى عليه من قيم. لقد كان في الأزمنة القديمة مكاناً ممتازاً، عالماً مغلقاً متقدساً، كان يتزوج فيه الفتيان والفتيات دورياً بغية الاشتراك في اسرار الحياة والخصوبة الكونية. ورث الطاوويون هذا التصميم الكوسمولوجي القديم - جبل وحوض ماء - واستنبطوا منه مجمّعا أكثر منه غنى (جبل، حوض ماء، كهف، شجرة)، لكنه صار اضيق نطاقاً: لقد كان هذا عالماً فردوسياً مصغراً، محتملاً بقوى مبطيئة لأنه منعزل عن الدنيا، وعنده يلتقي الطاوويون ويتأملون.

ومازلنا نستطيع ان نتبين قداسة العالم المغلق متمثلة في احواض الماء المعطر والغطاء الذي يرمز إلى البحر وجزر السعداء. ثم ان هذا المجمع يصلح للتأمل مثلما كانت صالحة له الحدايق

المصغرة قبل ان يستولي عليها المتعلمون ويحوروا فيها حسب مزاجهم في القرن السابع عشر وجعلوا منها «اشياء فنية».

ونلاحظ ايضاً اننا، في هذا المثال، لا نشهد ابدأ نزعاً تاماً للقدسية عن العالم، لأن ما يسمى «حساً جمالياً» مازال يحتفظ في الشرق الأقصى ببعده ديني حتى بين المتعلمين. لكن مثال الحداثك المصغرة يبين لنا بأي معنى تكون عملية نزع القدسية عن العالم وبأي وسيلة. حَسْبُنَا ان نتصور حساً جمالياً من هذا الصعيد امكن حدوده في مجتمع حديث حتى نفهم كيف يمكن ان تتدخل خبرة قداسة العالم وتغير حتى تصبح مجرد احساس بشري: كإحساس الفن للفن مثلاً.

## تجليات قدسية كونية أخرى

بما أننا التزمنا الإيجاز، لم نتكلم على بعض الجوانب من قدسية الطبيعة. فهناك عدد كبير من التجليات القدسية الكونية لم نأت لها على ذكر. كذلك لم نتكلم على الرموز والعبادات الشمسية أو القمرية، ولا عن المغزى الديني للحجارة، ولا عن الدور الديني للحيوانات، الخ. كل من هذه التجليات القدسية الكونية يكشف عن بنية خاصة من قدسية الطبيعة، أو بصورة أدق عن نمط من القدسي يُعبر عنه بواسطة نمط معين من الوجود في الكون. حسبنا ان نحلل مختلف القيم الدينية المضافة على الحجارة حتى ندرك ان الحجارة، بما هي تجليات قدسية، قابلة لأن تبيين للناس: تكشف لهم عن القوة والصلابة والديمومة. ان تجلي القدسي في الحجر ان هو إلا تجل

وجودي بامتياز: فالحجر، قبل كل شيء، كائن، يبقى دائماً هو نفسه، لا يتغير، يستوقف نظر الإنسان بما فيه من عدم قابلية للنقص ومن مطلق، وهو بذلك يميظ اللثام عن عدم قابلية الوجود للنقص وعن مطلقيته، قياساً. والنمط النوعي لوجود الحجر، الذي يرجع ادراكه إلى خبرة دينية، يكشف للإنسان ما هو الوجود المطلق، خارج الزمان، المعصوم عن الصيرورة.

كذلك ان تحليلاً سريعاً للقيم الدينية الكثيرة المضافة على القمر يعلمنا كل ما قرأه الناس في الإيقاعات القمرية. بفضل الأطوار القمرية، أي «ولادته» و«موته» و«انبعاثه»، شعر الناس في الوقت نفسه بنمط وجودهم الخاص في الكون وحظوظهم من البقاء في الحياة أو الانبعاث. بفضل الرمزية القمرية، حُمل الإنسان الديني على تقريب طوائف كبيرة من الوقائع دون ان تكون لها صلة ظاهرة فيما بينها، ثم ضمها بعضها إلى بعض في «جملة» واحدة. يُحتمل ان يكون التقويم الديني للإيقاعات القمرية قد جعل من المركبات synt-heses الإنسانية - الكونية العظيمة الأولى التي ركبها البدائيون اموراً ممكنة. بفضل الرمزية القمرية، امكن ايجاد علاقة وتوحيد فيما بين وقائع بالغة الاختلاف من مثل الولادة والصيرورة والموت والبعث والماء والنبات والمرأة والخصب والخلود والظلمات الكونية والحياة قبل الولادة والوجود خارج القبر تعقبه ولادة جديدة من النموذج القمري (النور الخارج من الظلمات) والنسيج، وهو رمز «خيظ الحياة»، والقدر والزمان والموت الخ. بعامه، معظم الأفكار التي تتعلق بالدورة والثنائية والقطبية والتضاد والصراع، بل وحتى افكار المصالحة بين

المتناقضات، كل هذا قد تمّ اكتشافه أو تعيينه بفضل الرمزية القمرية. يمكننا ان نتكلم على «ميتافيزيقا القمر»، أي على جملة متماسكة من «الحقائق» المتعلقة بنمط وجود نوعي للأحياء، بكل ما في الكون مما يسهم في الحياة، أي في الصيرورة والتكاثر والتناقص، في «الموت» و«الحياة». يجب الا ننسى: ان ما يكشفه القمر للإنسان الديني لا يقتصر على اتصال الموت بالحياة اتصالاً لا انفصام له وحسب، وانما ايضاً وبصورة خاصة ان الموت ليس نهائياً، وأنه تعقبه ولادة جديدة دائماً.

القمر يقوم الصيرورة الكونية دينياً ويصالح الإنسان مع الموت. اما الشمس فتكشف عن نمط آخر من الوجود: لا تسهم في الصيرورة، وهي في حركة دائمة، لا تتغير، وهيئها دائماً هي هي. ان التجليات القدسية الشمسية تترجم القيم الدينية المتعلقة بالاستقلال الذاتي والسيادة والذكاء. ولذلك نشهد في بعض الثقافات سياقاً يقوم على «شمس» الكائنات العليا. كما رأينا، ان الآلهة السماوية تميل إلى الغياب عن الفعل الديني، لكن بنيتها ومهابتها تظل باقية في حالات معينة في الآلهة الشمسية، خصوصاً في الحضارات التي بلغت درجة عالية من الإيقاعات ولعبت دوراً تاريخياً كبيراً (مصر، الشرق الهليني، المكسيك).

عدد كبير من ميثولوجيات البطولة هو من البنية الشمسية. فالبطل تتمثله الشمس، وهو مثلها يصارع الظلمات وينزل إلى مملكة الموت ويخرج منها ظافراً. هنا، لا تعود الظلمات، كما هو الحال في

الميثولوجيات القمرية، انماطاً من وجود الألوهة، بل ترمز إلى كل ما لا يكونه الله، أي إلى العدو بامتياز، ولا تعود الظلمات تقوّم باعتبارها طوراً ضرورياً من الحياة الكونية. في منظور الديانة الشمسية تتعارض الظلمات مع الحياة، ومع الأشكال، ومع العقل. وتصبح التجليات المنيرة للآلهة الشمسية، في ثقافات معينة، علامة على العقل. وفي نهاية المطاف يتوحد الشمس والعقل حتى لتتحول «اللواهيت» الشمسية والتوفيقية، التي عرفناها في نهاية العصور القديمة، إلى فلسفات عقلانية: يُنادى بالشمس عقلاً للعالم، وجرماً هائلاً يوحد في الشمس جميع آلهة العالم الإغريقي - الشرقي، من ابولو وجوبيتر إلى اوزيريس وحورص وأدونيس. في دراسة عن «الشمس الملك» للإمبراطور جوليان، وكذلك في «ترنيمة إلى الشمس» لبروكلوس، نجد التجليات القدسية الشمسية تخلي مكانها إلى «الأفكار»، والتدين يختفي اختفاء تاماً تقريباً في اعقاب هذا السياق الطويل من العقلنة.

يسدّج نزع القدسية عن التجليات الشمسية في كثير من السياقات المماثلة الأخرى، التي بفضلها أصبح الكون كله مُفرغاً من محتوياته الدينية، لكن جعل الطبيعة شأناً دنيوياً بصورة نهائية ليس شيئاً مكتسباً الا عند عدد محدود من ابناء هذا العصر: الذين حُرّموا من كل شعور ديني. وقد استطاعت المسيحية ان تُدخل تعديلات عميقة وجذرية على التقويم الديني للكون والحياة، ولم تنبذها بعيداً. ان تكون الحياة، في كليتها، ما تزال قادرة على ان تجعلنا نحسها بما هي رمز للألوهة، لقد شهد على ذلك كاتب مسيحي مثل ليون بلوي عندما قال: «الحياة في الإنسان أو الحيوان أو النبات هي الحياة دائماً،

وعندما تأتي الساعة (الدقيقة في الأصل)، النقطة التي لا ندركها ونسميها الموت، يكون يسوع دائماً هو الذي ينسحب من شجرة كما من كائن بشري».



## الفصل الرابع

---

الوجود البشري  
وتقديس الحياة



## الوجود «المنفتح» على العالم

الغاية النهائية التي يرمي اليها مؤرخ الأديان ان يفهم ، ويبين لغيره، مسلك الإنسان الديني وعالمه العقلي . والمهمة ليست سهلة دائماً . والدين ، بما هو شكل من الحياة ورؤية للعالم ، يلتبس عند الإنسان الحديث بالمسيحية . وعند المفكر الغربي ، في احسن الأحوال ، بضع فرص لكي يأتلف ، في شيء من الجهد ، مع الرؤية الدينية التي كانت سائدة في العصور الكلاسيكية القديمة ، وحتى مع بعض الديانات الشرقية الكبرى كالهندوكية والكنفوشيوسية والبوذية . لكن هذا الجهد الذي يبذله من اجل توسيع افقه الديني ، رغم انه جهد يستحق الثناء ، الا انه لا يذهب به بعيداً بما يكفي . فالمفكر الغربي ، مادام في نطاق اليونان والهند والصين ، لا يتجاوز دائرة الديانات المعقدة والمحكمة ، التي تمتلك تراثاً واسعاً من الأدب المقدس المكتوب . أن نعرف جانباً من هذه الآداب المقدسة ، وأن نأتلف مع بعض الميثولوجيات واللواهيت الشرقية أو التي تخص العالم

الكلاسيكي ، إن هذا غير كاف لكي نلج العالم العقلي عند الإنسان الديني . فهذه الميثولوجيات واللواهيت قد تميزت إلى حد الإفراط بشغل طويل بذله المتعلمون في سبيلها . فهي ، وإن كانت لا تشكل «ديانات كتاب» (كاليهودية والزرادشتية والمسيحية والإسلام) ، إلا أن لها كتباً مقدسة (الهند ، الصين) ، أو أنها على الأقل خضعت لتأثير مؤلفين نافذين (مثلاً ، هوميروس في اليونان) .

لكي نكوّن منظوراً دينياً أوسع ، من الأفيد أن نأنتف مع فولكلور الشعوب الأوروبية ؛ إذ ما زال بإمكاننا أن نتعرّف في معتقداتها وعاداتها ومسلكها على عدد من «المواقف الدينية» القديمة من الحياة والموت . عندما ندرس المجتمعات الزراعية الأوروبية ، نتاح لنا فرصة لفهم العالم الديني عند الفلاحين في العصر الحجري المتأخر . ففي كثير من الحالات ، تمثل عادات الفلاحين الأوروبيين ومعتقداتهم حالة ثقافية أقدم من الحالة التي نجدها في ميثولوجيا اليونان الكلاسيكية . صحيح أن الغالبية العظمى من هؤلاء الفلاحين الأوروبيين قد تنصّرت منذ أكثر من ألف عام ، إلا أنها استطاعت أن تدخل في نصرايتها جانباً كبيراً من إرثها الديني الذي يرجع إلى ما قبل المسيحية بأزمة سحيقة . ولعلنا نجانب الدقة لو اعتقدنا أن الفلاحين في أوروبا ، لهذا السبب ، ليسوا مسيحيين . لكن يجب الاعتراف بأن تدينهم لا يرتد إلى الأشكال التاريخية من المسيحية ، وأنه يحتفظ ببنية كونية غائبة كلها تقريباً عن خبرة مسيحي المدن . يمكننا أن نتكلم على مسيحية بدئية ، غير تاريخية . فالفلاحون الأوروبيون ، عندما تنصّروا أدخلوا في إيمانهم

الديني الديانة الكونية التي ظلوا يحتفظون بها منذ عصور ما قبل التاريخ .

لكن المشكلة اكثر تعقيداً بالنسبة لمؤرخ الأديان الذي يرغب في فهم وإفهام جملة المواقف الوجودية التي يتخذها الإنسان الديني . ان عالمه كله يمتد إلى ما وراء حدود الثقافات الزراعية ؛ عالم « البدائي » حقاً ، عالم الرعاة البداءة ، عالم الصيادين الذين لم يبارحوا مرحلة الصيد الصغير وجمع الطعام . ولكي نعرف العالم العقلي عند الإنسان الديني ، يجب الأخذ بالحسبان خصوصاً أناس المجتمعات البدائية . والحال يبدو لنا مسلكتهم الديني ، اليوم ، شاذاً ان لم يكن ضالاً فهو ، على كل حال ، قد بلغ من الصعوبة مبلغاً يتعذر علينا معه ان نفهمه . لكن ، ليس ثمة وسيلة أخرى لفهم عالم عقلي غريب الا ان نتمركز فيه من الداخل ، في مركزه بالذات ، لكي نصل منه إلى جميع القيم التي يمسك بها .

ان ما يتحقق منه حين يضع نفسه في منظور الإنسان الديني الذي ينتسب إلى المجتمعات القديمة ، هو أن العالم موجود لأن الآلهة خلقتة ، وأن وجود العالم نفسه « يعني » شيئاً ما ؛ فالعالم ليس اخرس ولا كثيفاً ، ليس شيئاً جامداً ، لا هدف له ولا معنى . عند الإنسان الديني ، الكون « يعيش » و « يتكلم » . ان حياة الكون نفسها برهان على قدامته ، مادامت الآلهة قد خلقتة ، وهي تتجلى للناس من خلال الحياة الكونية .

وانه لهذا السبب كان اعتبار الإنسان نفسه عالماً اصغر انطلاقاً من مرحلة معينة من الثقافة . فهو يشكل جزءاً من خلق الآلهة ؛ بعبارة

أخرى، يكتشف في نفسه «القداسة» التي يتعرفها في الكون. يترتب على ذلك ان حياته مماثلة للحياة الكونية: فهذه الحياة الكونية، بما هي عمل إلهي، تصبح الصورة النموذجية للوجود البشري. من امثلة ذلك: رأينا ان الزواج يُقَوَّم على انه زواج مقدس بين السماء والأرض. لكن المشكلة بين الأرض والمرأة تظل عند الفلاحين امراً أكثر تعقيداً. فالأرض المفلوحة هي المرأة، والبذر هو المني، والعمل الزراعي المعاشرة الزوجية. نجد في (الأنثرافيدا): «هذه المرأة جاءت مثل أرض حية: ابذروا فيها البذر، أيها الرجال!» (XIV, II, 14)، وفي القرآن: «نساؤكم حرث لكم» (١١: ٢٢٥) وتندب إحدى الملكات العاقرات سوء حفظها قائلة: «انا كحقل لا ينبت فيه شيء». وفي ترنيمة ترجع إلى القرن الثاني عشر نجد الشاء يُزجى على مريم العذراء لأنها «أرض غير مزروعة انبت نباتاً طيباً».

نحاول الآن ان نفهم الموقف الوجودي عند من يرى ان جميع هذه المشكلات ما هي إلا خبرات مُعاشة، وليست مجرد «افكار». واضح أن حياته تمتلك بُعداً إضافياً آخر: ان حياته ليست مجرد حياة بشرية بل هي حياة كونية في نفس الوقت، بما هي ذات بنية تتجاوز الوضع البشري. ولعلنا نستطيع ان ندعوها بـ «الوجود المنفتح»، بما هي غير محدودة تماماً بنمط الوجود البشري (نعرف، من ناحية أخرى، ان البدائي يقيم نموذجها الخاص به الذي يريد بلوغه على الصعيد الذي يتجاوز الشرط البشري الذي توحى به الأساطير).

ان وجود الإنسان الديني، وخاصة البدائي، وجود «منفتح» على العالم. فهو إذ يحيا، والإنسان الديني ليس وحده ابداً، فإنما يحيا فيه

جزء من العالم ايضاً. لكننا لا نستطيع ان نقول مع هيجل ان الإنسان البدائي «مكفّن في الطبيعة»، وأنه لم يزل لا يلاقي نفسه بما هو كائن متميز عن الطبيعة، أي بما هو هو نفسه. الهندوكي الذي يعلن، وهو يضاجع زوجته، أنها هي الأرض وأنه هو السماء، يغمره في الوقت نفسه شعور بإنسانيته وإنسانية زوجته. والفلاح الأسترالي - الآسيوي، الذي يُسمى القضيب والمرّ أو الرفش باسم واحد Lak، ويمثل الحبّ بالمني كغيره من الفلاحين، يعلم تمام العلم ان الرفش أداة صنعها بنفسه وأنه إذ يعمل في الحقل فإنما يقوم بعمل زراعي مؤلف من عدد معين من المعارف التقانية. بعبارة أخرى، الرمزية الكونية تضيف قيمة جديدة على شيء أو فعل، بدون ان تنال مع ذلك من قيمته الخاصة والمباشرة. ان وجوداً «منفتحاً» على العالم يتيح للإنسان الديني ان يعرف نفسه فيما يعرف العالم، وهذه المعرفة عزيزة عليه لأنها معرفة «دينية»، مصدرها الله.

## تقديس الحياة

المثال الذي أوردناه توأ يساعدنا على فهم المنظور الذي يقع فيه إنسان المجتمعات القديمة، فهو يرى ان الحياة في كليتها قابلة لأن تكون حياة مقدسة. والوسائل التي يمكنه بواسطتها الحصول على التقديس كثيرة، لكن النتيجة هي نفسها دائماً: الحياة تُعاش على صعيدين: فهي تجري بما هي وجود بشري، وفي نفس الوقت تشترك في حياة تتجاوز الشرط البشري، هي حياة الكون والآلهة هناك ما يسوغ لنا الافتراض بأنه في الماضي السحيق كان لجميع الأعضاء

والاختبارات الفيزيولوجية التي للإنسان ولجميع الحركات والأفعال التي يؤديها مغزى ديني . ان هذا أمر مسلم به ، لأن جميع أوجه السلوك البشري قد ابتدأها الآلهة أو الأبطال المحضرون في ذلك الزمان : فهؤلاء لم يُرسلوا قواعد مختلف الأعمال وطرائق الموت وممارسة الحب والتعبير عن النفس وحسب ، وإنما الحركات التي تبدو لا أهمية لها ايضاً . في اساطير الاوستراليين الكاراجيري ، اتخذ بطلا التحضير وضعاً خاصاً للتبول ، ومازال الكاراجيري يحاكون هذا الوضع النموذجي حتى اليوم . لا فائدة من التذكير بأنه لا يوجد شيء من هذا القبيل لا يتفق مع الخبرة الدنيوية للحياة . عند الإنسان غير الديني ، جميع الخبرات الحياتية ، سواء أكانت جنساً أم غذاء ، عملاً أم لهواً ، قد تجردت من القدسية . بعبارة أخرى ، جميع أفعاله الفيزيولوجية باتت عارية من معناها الروحي ، وبالتالي من بعدها الإنساني حقاً .

لكن ، خارج هذا المعنى الديني الذي يُضفى على الأفعال الفيزيولوجية بما هي محاكاة لنماذج إلهية ، تقوم الأعضاء ووظائفها تقوياً دينياً بواسطة تشبيهها بمختلف الأقاليم والظواهر الكونية . لقد مرّ معنا مثال كلاسيكي : تشبه المرأة بالأرض المزروعة والأرض - الأم ، والفعل الجنسي بالزواج المقدس بين السماء والأرض ، وبالبدار . لكن عدد هذه التشابهات بين الإنسان والعالم كبير . اذ يبدو بعضها وكأنه يفرض نفسه عفواً على الروح ، من ذلك مثلاً التشابه بين العين والشمس ، أو قلنسوة الجمجمة (استدارة الرأس) والقمر بدرأ ، أو تشبيه الأنفاس بالرياح ، والعظام بالحجارة ، والشعر بالعشب الخ .



لكن مؤرخ الأديان يواجه مشابهاً أخرى تنطوي على رمزية أكثر إحكاماً، جملة من النظائر بين العالم الأصغر والعالم الأكبر. هكذا تشبيه البطن أو الرحم بالحفرة، والمصارين بالمتاهات، والتنفس بالنسج، والأوردة والشرابين بالشمس والقمر، والعمود الفقري بمحور العالم axis mundi الخ. لا شك أننا لا نجد جميع هذه التشابه بين جسم الإنسان والعالم الأكبر عند البدائيين. فبعض الجمل من الأشباه والنظائر ما بين الإنسان والعالم لم تبلغ مرتبة الإتقان إلا في الثقافات العظمى (الهند، الصين، الشرق الأدنى القديم، اميركا الوسطى). ومع ذلك نجد نقطة بدايتها في الثقافات القديمة، حيث نجد عند البدائيين جملة من المشابها البشرية - الكونية على نحو من التعقيد خارق للعادة ينم على قابلية للتأمل لا نفاذ لها. هذه هي الحال مثلاً عن «الدوغون» في افريقيا الوسطى القديمة الفرنسية. تهمنا هذه المشابها البشرية - الكونية على وجه الخصوص بمقدار ما تكون «رموزاً» تدل على مختلف المواقف الوجودية. قلنا ان الإنسان الديني يعيش في عالم «منفتح»، وان وجوده، من ناحية أخرى، «منفتح» على العالم. وهذا يعني ان الإنسان الديني عرضة لسلسلة لا نهاية لها من الخبرات التي يمكن ان نسميها «كونية». هذه الخبرات هي خبرات دينية دائماً، من حيث ان العالم عالم مقدس. وللوصول إلى فهم هذه الخبرات، يجب ان نتذكر ان الوظائف الفيزيولوجية الأساسية قابلة لأن تصير أسراراً مقدسة. فالطعام يؤكل طقسياً، ويختلف تقويم الغذاء باختلاف الأديان والثقافات: فالأطعمة اما ان تكون مقدسة، أو هبات من الآلهة، أو قرابين للآلهة الجسد (كما

هو الحال في الهند مثلاً). وقد رأينا ان الحياة الجنسية تجري وفق طقس معين، وبالتالي شبيهة بالظواهرات الكونية (مطر، بذار)، بمقدار ما هي شبيهة بالأفعال الإلهية (زواج مقدس: سماء - ارض). أحياناً يُقوّم الزواج على صعيد ثلاثي: فردي واجتماعي وكوني. مثلاً، عند الـ «أوماها»، تقسم القرية نصفين متساويين، أحدهما يدعى السماء والثاني الأرض. ولا يتم الزواج الا فيما بين النصفين المتغايرين، وكل زواج جديد يكرر الزواج المقدس البدئي: الاتحاد بين الأرض والسماء.

ظلت هذه المشابهات البشرية - الكونية، وخصوصاً ما تلاها من تقدّيس للحياة الفيزيولوجية، تحتفظ بكل حيوتها حتى في الديانات التي بلغت درجة عالية من التطور. ونقتصر على مثال واحد فقط: الاتحاد الجنسي بما هو طقس، مذكرين انه بلغ منزلة كبيرة في الطائفة الهندية. فالهند تبين لنا بصورة مدهشة كيف يمكن فعلاً فيزيولوجياً ان يتحول إلى طقس، وكيف يمكن تقويم نفس الفعل باعتباره «ثقافية مستطيقية» (= صوفية)، بعد ان تجاوز العصر الطقوسي. ان مناداة الزوج لزوجته: «انا السماء، انت الأرض!»، تأتي عقب تحول الزوجة الأولى إلى مذبح للقربان الفيدي. لكن في الطائفة، تنتهي المرأة إلى ان تصبح تجسيداً للبراكريتي (الطبيعة) وللإلهة الكونية، الشاكتي، بينما يتواحد الذكر مع شيفا، الروح البحت، الثابت الساكن. والاتحاد الجنسي هو، قبل كل شيء، تكامل مبدئين هما: الطبيعة - الطاقة الكونية والروح، كما عبر عن ذلك نص طائطري: «الاتحاد الجنسي الحقيقي هو اتحاد بين الشاكتي

العليا والروح (أثمن)؛ ما سوى ذلك لا يمثل غير روابط جسدية مع المرأة». (كولار نافا طانظرا 112، III، V). لم يعد الأمر يتعلق بفعل فيزيولوجي، بل بطقس مستطقي، ولم يعد أطرافه كائنات بشرية، بل «متجردون» وأحرار كالآلهة. ومآتي النصوص الطانظرية تبين أن المقصود هو تجوهر الخبرة الجنسية: «بنفس الأفعال التي تحرق بعض الناس في الجحيم طوال ملايين السنين، ينال اليوغي السلام الأبدي». وتؤكد «البراهادارا نياكا أو بانيشاد» (8، XIV، V): «أن من يعرف هكذا، مهما بدت الخطيئة التي يرتكبها، فهو طاهر، بلا شيوخوخة، خالد». بعبارة أخرى، أن «من يعرف» يمتلك خبرة مغايرة للخبرة الدنيوية. أي أن كل خبرة بشرية قابلة للتجوهر، ولأن تعاش على صعيد آخر يتجاوز الشرط البشري.

يبين لنا المثال الهندي إلى أي مدى من التلطيف «المستطقي» يمكن أن يصل إليه تقديس الجوارح والحياة الفيزيولوجية، وهو التقديس الذي نجده على نطاق واسع في جميع المستويات القديمة من الثقافة. نضيف أن تقويم الجنس بما هو وسيلة للاشتراك في القدسي (في حالة الهند، الحصول على الحالة التي تتجاوز الشرط البشري، حالة الحرية المطلقة) لا يخلو من أخطار. ففي الهند نفسها، أفسحت الطانظرية المجال للاحتفالات الفضالة ذات السمعة الشائنة. وفي غير الهند، في العالم البدائي، يكون الجنس مصحوباً بأشكال عديدة من الدعارة. ومع ذلك يظل هذا المثال يحتفظ بقيمة إيحائية بما يكشفه لنا عن خبرة لم يعد من الممكن الحصول عليها في مجتمع نُزعت عنه صفة القدسية: خبرة حياة جنسية مقدسة.

## الجسد - البيت - الكون

رأينا ان الإنسان الديني يعيش في كون «منفتح»، وأنه إنسان «منفتح» على العالم. نريد بذلك : (١) انه على اتصال بالآلهة ؛ (٢) وأنه يشارك في قداسة العالم. ان يكون الإنسان الديني غير قادر على العيش الا في عالم «منفتح»، لقد رأينا ذلك في تحليلنا لبنية المكان المقدس : فالإنسان يرغب في ان يقيم «مركز»، حيث إمكانية الاتصال مع الآلهة. فممكنه عالم أصغر: بالاضافة إلى ان جسده كذلك ايضاً. والتماثل بين البيت والجسد والكون فرض نفسه في زمان باكر جداً لتتوقف قليلاً عند هذا المثال، لأنه يبين لنا بأي معنى تكون قيم التدين القديمة قابلة لأن تعيد تفسيرها الأديان (الحديثة) لا بل وحتى الفلسفات المتأخرة.

لقد حفل الفكر الديني الهندي بهذه المماثلة التقليدية : البيت - الكون - جسم الإنسان، وبيّن أسبابها: الجسد، كالكون، هو، في نهاية المطاف، «وضع»، جملة من الشروط. فالعمود الفقري يُشَبَّه بالعمود الكوني (سكامها)، أو جبل ميرو meru ، والأنفاس تتواحد بالرياح، والسرة أو القلب بـ «مركز العالم»، الخ. والمثابة تجري ايضاً بين جسم الإنسان والطقس في مجمله : مكان القربان، والأدوات والحركات القربانية تتماثل مع مختلف الجوارح والوظائف الفيزيولوجية. والجسم البشري، الذي يتماثل طقسياً مع الكون أو مع المذبح الفيدي (الذي هو صورة للعالم imago mundi)، يتماثل ايضاً

مع البيت . فهناك نص «هاثايوغي» يتكلم عن الجسم كـ «بيت ذي عمود وتسعة ابواب» (غوراكشا شاتانكا ، ١٤) .

بكلمة واحدة ، الإنسان ، اذ يقيم في الموقع المثالي الذي قُدر عليه سلفاً ان يقيم فيه ، فإنما «يُسْتَكُون» (= يصير كَوْنًا) : يكرر على المستوى البشري جملة الشروط المتبادلة والإيقاعات التي تميز «العالم» وتشكله ، التي تحدّ كل عالم . كذلك تلعب المماثلة دوراً في المعنى المضاد : فالمعبد أو البيت ، بدورهما ، يعتبران جسماً بشرياً . فـ «عين القبة» اصطلاح يتكرر في كثير من التقاليد المعمارية . لكن من المهم ان نلفت النظر إلى هذه الحقيقة : كل صورة من صور الكون أو البيت أو الجسم البشري قابلة لأن تتلقى «فتحة» عليا تتيح العبور إلى عالم آخر . فالفتحة العليا في البرج الهندي تسمى ، في جملة تسميات أخرى ، «براهما رندرا» . ويدل هذا الاصطلاح على «الفتحة» التي توجد في سمت الرأس ، والتي تلعب دوراً رئيسياً في التقانيات اليوغية - الطانطرية . فمن هنا تطلع الروح في لحظة الموت . نذكر بهذا الصدد بعادة كسر جمجمة اليوغي الميت تسهلاً لطلوع الروح .

لهذه العادة مثيلتها في الاعتقادات المنتشرة كثيراً في اوروبا وآسيا ، وهي ان روح الميت تطلع من المدخنة (ثقب الدخان) أو من السقف ، وخصوصاً من الجزء الموجود فوق «الزاوية المقدسة» . وفي حالة الاحتضار الطويل ، يصار إلى نزع خشبة أو أكثر من السقف ، أو حتى يُكسر السقف كله . ان المغزى من هذه العادة ظاهر بين : سوف تنفصل الروح عن جسدها بصورة أسهل ، اذا تكسرت الصورة

الأخرى من الجسد - الكون، وهي البيت، في اجزائها العليا. واضح ان جميع هذه الخبرات ليست في متناول الإنسان غير الديني، لا لأن الموت لم يعد له صفة قدسية عنده وحسب، وإنما لأنه لم يعد يعيش في «كون» بالمعنى المخصوص للكلمة، ولم يعد يأخذ في حسابه ان يكون له «جسد» وأن يقيم في بيت يضاهي اتخاذ موقع وجودي في الكون.

ما يلفت الانتباه ان المفردات المستطيقية الهندية قد احتفظت بالتشابه بين الإنسان والبيت، وخصوصاً التشابه بين الجمجمة والسقف أو القبة. فالتجربة الصوفية الأساسية، أي تجاوز الشرط البشري، يُعبّر عنها في صورة مزدوجة: اختراق السقف أو الطيران في الهواء. وتحدث النصوص البوذية عن الـ «أزها» التي «تطير في الهواء بعد أن تكسر سقف القصر»، التي «وهي تطير بمحض ارادتها، تخترق سقف البيت وتطير في الهواء»<sup>(1)</sup>. هذه الصيغ المجازية قابلة لأن تُفسّر تفسيراً مزدوجاً: على صعيد الخبرة الصوفية، يكون الأمر متعلقاً بـ «الوجد»، وبالتالي تحليق الروح بواسطة «البراهما رندرا». على الصعيد الميتافيزيقي، يتعلق الأمر بإلغاء العالم المشروط. لكن «طيران الأزها» يُعبّر في وقت واحد عن اختراق المستوى الأنطولوجي والعبور من نمط وجود إلى آخر، أو بصورة أدق، العبور من الوجود المشروط إلى وجود غير مشروط، أي الحرية المطلقة.

(1) Cf. M. Eliade, *Mythes, Rêves et Mystères*, pp. 133 sq.

في معظم الأديان القديمة، يعني «الطيران» بلوغ نمط من الوجود يتجاوز الشرط البشري (إله، ساحر، «روح»)، في التحليل الأخير، حرية التحرك بمحض الإرادة، وبالتالي امتلاك شرط «الروح». في الفكر الهندي، الأزهار الذي «يخترق سقف البيت» ويطير في الهواء يصور على نحو تشبيهي انه اخترق الكون ووصل إلى نمط من الوجود مختلف، بل لا يرقى إليه تفكير، هو نمط وجود الحرية المطلقة (مهما كانت تسميتها: نرفانا، اسام سكرتا، سماذي، سهاجا، الخ.) على الصعيد الميثولوجي، البادرة النموذجية لاختراق العالم يبينها بوذا اذ يعلن انه كسر «البيضة» الكونية، «قوقعة الجهل»، وأنه نال «مرتبة بوذا العالمية السعيدة».

يبين لنا هذا المثال اهمية ديمومية الرمزيات القديمة المتعلقة بسكن الإنسان. اذ تعبر هذه الرمزيات عن مواقف دينية بدئية، لكنها قابلة لتعديل قيمها بالاغتناء بمعان جديدة والاندراج في انظمة من الفكر تتمفصل بآطراد. انما «يُسكن» في الجسد على نفس النحو الذي يُسكن فيه في البيت أو الكون الذي خلق نفسه بنفسه. كل وضع مشروع ودائم فإنما ينطوي على اندراج في كون، في عالم منظم تنظيماً تاماً، وبالتالي يحاكي نموذجاً مثالياً، هو الخلق. كل إقليم مسكون، سواء أكان معبداً أم بيتاً أو جسداً، فإنما هو كون. لكن جميع هذه الأكوان، كل بحسب نمط وجوده، تحتفظ بـ «فتحة»، بصرف النظر عن التعبير الذي تعطيه لها مختلف الثقافات: «عين» المعبد، المدفأة، المدخنة، (براهما - رندرا، الخ). الكون الذي يُسكن فيه - جسد، بيت، مضارب قبيلة، هذا العالم في مجمله -

يتصل على هذا النحو أو ذاك من أعلاه بمستوى آخر يتجاوزه ويعلو عليه.

نستخلص من هذا ان الانفتاح على صعيد أعلى ، في ديانة غير كونية كديانة الهند بعد البوذية ، لم يعد يعبر عن العبور من الشرط البشري إلى شرط أعلى ، بل عن التعالي ، عن الغاء الكون ، عن الحرية المطلقة . الفرق كبير بين المعنى الفلسفي في «البهضة المكسورة» التي كسرهابوذا أو «السقف» الذي يخترقه «الأرهاب» وبين الرمزية القديمة للعبور من الأرض إلى السماء على محور العالم أو من ثقب الدخان . يبقى ان الفلسفة الهندية ، كالمستطيقا الهندية ، قد اختارت على سبيل التفضيل ، من الرموز التي يمكن ان تعني الانقطاع الانطولوجي والتعالي ، هذه الصورة البدئية التي يُعبر فيها بانفجار السقف . ويُترجم تجاوز الشرط البشري ، بطريقة التشبيه ، بإلغاء «البيت» ، أي الكون الشخصي الذي يختاره الإنسان للإقامة فيه . كل «ممكن مستقر» «يُقام» فيه يساوي ، على الصعيد الفلسفي ، اتخاذ وضع وجودي . ان صورة انفجار السقف تعني الغاء كل «وضع» ، وان الإقامة في العالم ليست هي موضوع الاختيار ، بل الحرية المطلقة التي تنطوي ، في الفكر الهندي ، على الغاء كل عالم مشروط .

ليس من الضروري ان نذهب في تحليل القيم التي يمنحها احد معاصرينا اللادينيين لجسده وبيته وعالمه ، حتى نتحقق من بعد المسافة التي تفصله عن الناس الذين ينتمون إلى الثقافات البدائية والشرقية التي تكلمنا عنها لتؤنا . فكما ان مسكن الإنسان الحديث قد فقد قيمته الكوسمولوجية ، كذلك فقد جسده كل معنى ديني أو روحي .



خلاصة القول، لعلنا نستطيع ان نقول ان الكون، عند الحديثين الذين تجردوا من التدين، قد أصبح كوناً صفيقاً، راكداً، أبكم: لا ينقل رسالة، ولا يحمل «رمزاً». لكن الشعور بقداسة الطبيعة لم يزل إلى اليوم حياً في أوروبا، وخصوصاً عند أهل الأرياف، لأنه في الأرياف مازالت المسيحية تُعاش بما هي ليثورجية كونية.

اما مسيحية المجتمعات الصناعية، ولاسيما مسيحية المفكرين، فقد فقدت القيم الكونية التي كانت لها في القرون الوسطى منذ زمن بعيد. ان هذا لا يعني ان مسيحية المدن «منحطة» أو «متدنية» بالضرورة، بل تضال الحساسية الدينية عند أهل المدن إلى درجة خطيرة. فالليثورجية الكونية، وسر اشتراك الطبيعة في الدراما الكرستولوجية - كل هذا قد أصبح في غير متناول المسيحيين الذين يعيشون في مدينة حديثة. ان خبرتهم الدينية لم تعد «منفتحة» على الكون. لقد أصبحت خبرة خصوصية تماماً، وأصبح السلام مسألة بين الإنسان وربه وفي أحسن الأحوال، لا يعترف الإنسان بمسؤوليته امام الله وحسب، وإنما امام التاريخ ايضاً. لكن الكون لا يجد له مكاناً في هذه العلاقات: الإنسان - الله - التاريخ. ان ما يبقى للافتراض هو ان العالم، حتى بالنسبة لمسيحي اصيل، لم يعد يحس به على انه من عمل الله.

## العبور من الباب الضيق

ان ما قلناه عن رمزية الجسد - البيت، والمشابهات البشرية -

الكونية التي تتصل بها اتصالاً وثيقاً، بعيد عن استفاد ثراء الموضوع .  
فقد كان علينا ان نقتصر على بضعة جوانب فقط من جملة جوانبه  
الكثيرة . «فالبيت» - في نفس الوقت صورة العالم ونسخة عن الجسم  
البشري - يلعب دوراً كبيراً في الطقوس والأساطير . ففي بعض  
الثقافات (الصين في بداية التاريخ وإتروريا ، الخ .) ، تصنع الجرار  
التي كان يُحفظ فيها رماذ الموتى على هيئة بيت ، فيها فتحة عليها تسميح  
لروح الميت بالدخول والخروج . بذلك تصبح الجرة - البيت جسماً  
جديداً للمتوفى . لكن هناك ايضاً «بُوت» (بيت صغير) على هيئة  
قلنسوة يخرج منه السلف الميطيقي ، وفي مثل هذا البيت - الجرة -  
القلنسوة ايضاً ، تتوارى الشمس في أثناء الليل لكي تعود فتطلع عند  
الصباح . اذن هناك مطابقة بنيوية بين مختلف أنماط العبور : من  
الظلمات إلى النور (شمس) ، من حالة ما قبل الوجود يكون عليها عرق  
بشري ما إلى ظهوره إلى حيز الوجود (السلف الميطيقي) ، من الحياة  
إلى الموت ، وإلى الوجود الجديد الذي يُعقب الموت .

لقد بينا مراراً ان كل شكل من اشكال الكون - العالم ، المعبد ،  
البيت ، الجسم البشري - مزود بفتحة عليا . ولعلنا نفهم الآن بصورة  
أفضل معنى هذه الرمزية : الفتحة تتيح العبور من نمط وجود إلى آخر .  
كل وجود كوني مقدر له «العبور» : الإنسان يعبر مما قبل الحياة إلى  
الحياة ثم إلى الموت ، كما عبر السلف الميطيقي مما قبل الوجود إلى  
الوجود ، وكما عبرت الشمس من الظلمات إلى النور . نلاحظ ان هذا  
النمط من «العبور» يتدرج في نظام اكثر تعقيداً ، درسنا منه المفاصل  
الرئيسية عندما تكلمنا على القمر ، بما هو رمز للتجديد الشامل ،

وخصوصاً لكثير من طرائق تكرار خلق العالم (كوسموغونيا) طقسياً، أي العبور النموذجي من القوة إلى الفعل. من المناسب ان نبين ان جميع هذه الطقوس والرموز المتعلقة بـ «العبور» تعبر عن مفهوم نوعي للوجود البشري: فالإنسان، بعد أن يولد، يظل مع ذلك غير مكتمل الخلق؛ لذلك يجب ان يخلق مرة ثانية، لكن هذه المرة، روحياً. وإنما يصبح إنساناً تاماً بالعبور من حالة النقص، الحالة الجنينية، إلى الحالة التامة من النضج. بكلمة واحدة، يمكننا القول ان الوجود البشري يصل إلى امتلائه عبر سلسلة من طقوس العبور، باختصار من خلال عمليات متعاقبة من المسارات (= استلام الأسرار).

سوف نتناول، فيما بعد، معنى المسارّة والوظيفة التي تؤديها. اما الآن فنتوقف عند رمزية «العبور» كما يفهمها الإنسان الديني في وسطه المألوف وفي حياته اليومية: مثلاً، في بيته، في الطرقات التي يسلكها ذاهباً إلى حيث عمله، في الجسور التي يجتازها، الخ. هذه الرمزية ماثلة في نفس المسكن الذي يقطنه. فالفتحة العليا تعني، كما رأينا، الجهة الصعوديّة نحو السماء، الرغبة في تجاوز الشرط البشري. «الوصيد» (العتبة) يكشف بصورة حسية عن الحد الفاصل بين «الخارج» و«الداخل»، بمقدار ما يكشف عن إمكانية العبور من منطقة إلى أخرى (من الدنيوي إلى القدسي؛ يرجع إلى الفصل الأول). لكن صور الجسر والباب الضيق هي التي توحى بصفة خاصة بفكرة العبور المحفوف بالخطر، ولذلك تكثر في الطقوس وميثولوجيات المسارّات والجنائز. ان المسارّة، كالموت والوجد المستطقي والمعرفة المطلقة، مثلما هي الإيمان في اليهودية - المسيحية، تساوي

العبور من نمط من الوجود إلى آخر، وتُحدث طفرة انطولوجية حقيقية. ولإيحاء بهذا العبور الغريب (الذي ينطوي دائماً على انقطاع وتعالٍ)، عمدت مختلف التقاليد الدينية إلى الإكثار من استعمال رمزية الجسر أو الباب الضيق. في الميثولوجيا الإيرانية، يُستعار جسر قنّوات لكي يعبره الأموات في رحلتهم بعد الموت: عَرْضُه تسعة رماح للمصالحين، لكنه يضيق على الفجار حتى يصبح مثل «حدّ السكين» (دنكارت 3، IX, XX). تحت جسر «قنّوات» يفتح ثقب عميق من جهنم (بيد ييدات 7، III). وعلى هذا الجسر أيضاً يعبر الصوفيون في رحلتهم الوجدية إلى السماء: من هنا، مثلاً، صعد بالروح «أزداثراف»<sup>(1)</sup>.

وتكشف لنا رؤيا القديس بولس عن جسر «رفيع كالشعرة» يصل ما بين «أنا والفردوس». وإننا لنجد نفس الصورة عند الكتاب والصوفى العرب: الجسر «أرفع من الشعرة»، ويصل الأرض بأقطار السماء وبالفردوس. كذلك تؤكد التقاليد المسيحية أن الخاطئين الذين لا يستطيعون اجتيازه يُقذفون إلى الجحيم. وتحدث الأساطير الوسيطة عن «جسر مخبوء تحت الماء»، وعن جسر - سيف يتوجب على البطل (لانسلوت) أن يجتازه عاري القدمين واليدين: هذا الجسر «أقطع من المنجل»، وعبوره يتم «بالألم والعذاب». في التقاليد الفنلندية، يجتاز الجحيم جسر تغشته إبر ومسامير وشفار: يستخدمه الأموات، كما يستخدمه الشامانيون في حال الوجد، في سفرتهم إلى

(1) Cf. M. Eliade, *Le Chamanisme et les techniques archaïques de l'extase* (Paris, 1951) PP. 357 sq.

العالم الآخر. وإننا لنجد مثل هذه الأوصاف في كل مكان في العالم تقريباً. لكن من المهم أن نبين أن الاحتفاظ بهذه الصورة يقصد منه أن يعني صعوبة المعرفة الميتافيزيقية، وفي المسيحية صعوبة الإيمان. «صعب هو العبور فوق شفرة مشحونة، يقول الشعراء لكي يعبروا عن صعوبة الطريق الذي يؤدي إلى المعرفة العليا» (كانا أوبانيشاد، 14، III). «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه» (متى ٧ : ١٤).

هذه الأمثلة القليلة على الجسر والباب وما تنطوي عليه من رمزية مُسارَرية وجنائزية وميتافيزيقية تبين لنا بأي معنى يكون الوجود اليومي و«العالم الصغير» الذي ينطوي عليه - البيت وأدواته، الروتين اليومي وحركاته، الخ. - قابليْن للتقسيم على الصعيد الديني والميتافيزيقي. إنها الحياة الجارية في جميع الأيام لهي التي تتجوهر في خبرة الإنسان الديني: في كل مكان يكتشف «رمزاً». حتى أكثر الحركات عادية قد تعني فعلاً روحياً. فالتريق والسير قابلان للتحويل إلى قيم دينية، لأن كل طريق قد يرمز إلى «طريق الحياة». وكل سير «حج»، حج إلى مركز العالم. لئن كان امتلاك «بيت» ينطوي على اتخاذ وضع مستقر في العالم، فإن الذين يزهدون في بيوتهم، وهم الحجاج والزهاد، يعلنون بـ «سيرهم»، وتنقلهم المستمر، رغبتهم في الخروج من العالم، ورفضهم لكل وضع دنيوي. تقول الـ «كاومشا براهمانا» (XL, XV, 1): البيت عُش. والعُش يرمز إلى الأسراب والأولاد والمأوى. بكلمة واحدة، يرمز إلى العالم العائلي الاجتماعي الاقتصادي. وعلى الذين اختاروا البحث، الطريق إلى المركز، أن

يتخلّوا عن كل وضع عائلي واجتماعي، وعن كل «عش» ويمحضوا انفسهم من اجل «السير» إلى الحقيقة العليا، التي تلبس بالإله الخفي في الديانات المرتقية.

## طقوس العبور

تلعب طقوس العبور دوراً كبيراً في حياة الإنسان الديني، كما قد لوحظ ذلك منذ زمن بعيد<sup>(1)</sup>. طبعاً، ان طقس العبور بامتياز هو الطقس الذي يمثله بلوغ سن الرشد، الانتقال من سنّ إلى أخرى، (من الطفولة او المراهقة إلى الشباب). لكن هناك ايضاً طقوس العبور إلى الولادة، إلى الزواج وإلى الموت. ولعلنا نستطيع القول ان الأمر يتعلق، في كل هذه الحالات، باستلام سر دائماً. ذلك ان في كل منها يحدث تغير جذري في النظام الانطولوجي والحالة الاجتماعية. الطفل عندما يولد لا يكون له غير وجود فيزيائي، ولا يكون معترفاً به بعد في العائلة، ولا مقبولاً بعد في الجماعة. وإنما الطقوس التي تُؤدّى عند الوضع هي التي تمنح المولود الجديد صفة «الحَيّ» بالمعنى المخصوص للكلمة، وبفضل هذه الطقوس فقط يصبح عضواً في جماعة الأحياء.

والزواج ايضاً مناسبة للعبور من فئة اجتماعية - دينية إلى أخرى. فالزوج يترك جماعة العازبين لكي ينضم من بعد إلى جماعة أرباب الأسر. كل زوج فينطوي على شدة أو خطر، ويؤذن بأزمة؛ ولهذا

(1) Voir, ARNOLD VAN GENNEP, Les Rites de Passages. (Paris, 1909).

السبب يتم من خلال طقس عبور. وكان الإغريق يسمون الزواج «تيلوس» telos ، اي «تطويب» (= من «الطوبى»)، وكان طقس العرس عندهم شبيهاً بطقس استلام الأسرار أو المسارة.

أما طقوس الموت فأكثر تعقيداً حتى ان الأمر لا يعود يتعلق بـ «ظاهرة طبيعية» (الحياة، أو الروح، تغادر الجسد) وحسب، وإنما بتغيير انطولوجي واجتماعي في الوقت نفسه : يجب على الميت ان يواجه تجارب معينة تتعلق بمصيره ~~الخاص~~ فيما بعد القبر. لكن يجب ان يعترف به مجتمع الموتى وأن يقبلوه بينهم. عند بعض الشعوب، التكفين الطقسي وحده هو الذي يؤكد حصول الموت؛ فمن لا يدفن وفق للعادة فليس بميت. وعند شعوب أخرى، لا يُعترف بموت شخص الا بعد إتمام المراسم الجنائزية، أو إلا بعد أن تُقاد روح الميت طقسياً إلى مقامها الجديد، في العالم الآخر، حيث يقبله جماعة الموتى. عند الإنسان غير الديني، الولادة والزواج والموت ما هي الا حوادث تهم الفرد وعائلته، ونادراً ما يكون لهذه الحوادث انعكاسات سياسية الا في حالات رؤساء الدولة أو رجال السياسة. في منظور غير ديني للحياة، فقدت جميع هذه «العبورات» صفتها الطقسية؛ فلم تعد تعني غير إظهار الفعل الجسمي للولادة أو الوفاة أو الاتحاد الجنسي المعترف به رسمياً. نضيف مع ذلك ان تجربة للحياة غير دينية تماماً قلما نجد لها في حالتها الصرفة، حتى في أكثر المجتمعات دنيوية. قد تصبح مثل هذه التجربة غير الدينية أكثر شيوعاً في مستقبل بعيد، لكن في الوقت الحاضر لم تزل نادرة. ان ما نجده في العالم الدنيوي دنيوية جذرية للموت والزواج والولادة. لكن، بما

أنا لا ننفك نرى العالم، يظل هناك ذكرى أو حنين غامض إلى سلوك ديني بطل استعماله.

أما طقوس استلام الأسرار (= المسارة)، بالمعنى المخصوص للكلمة، فترى من المناسبة التمييز ما بين بلوغ سن الرشد ومراسم الدخول في جمعية سرية: أهم فرق هو أن جميع المراهقين مضطرون لمواجهة «الدخول» في سن الرشد، بينما تقتصر الجمعيات السرية على عدد معين من البالغين. لذلك يبدو أن مؤسسة دخول سن الرشد أقدم عهداً من مؤسسة الجمعيات السرية. وبما أنها أوسع انتشاراً، فإننا نجد لها في أقدم المستويات الثقافية، مثلاً عند الأستراليين والفويجيين. ليس المجال مجال بسط موضوع مراسم استلام الأسرار وتعميداتها. إن ما يهمنا هنا هو أن نبين أن استلام الأسرار لعب، منذ المراحل الأولى من الثقافة، دوراً رئيسياً في التكوين الديني للإنسان، خصوصاً وأنه يتألف جوهرياً من طفرة في النظام الأنطولوجي للمستجد. هذه الواقعة تبدو بالغة الأهمية في نظرنا لكي نفهم الإنسان الديني: تُظهرنا على أن إنسان المجتمعات البدائية لا يعتبر «ناجزاً»، مثلما هو «مُعطى» في المستوى الطبيعي من الوجود: لكي يصير الإنسان إنساناً بكل معنى الكلمة، يجب أن يموت عن هذه الحياة الأولى (الطبيعية)، وأن يولد ثانية لكي يحيا حياة عليا، هي حياة دينية وثقافية في نفس الوقت.

بعبارة أخرى، إن الإنسان البدائي يُحل مثله الأعلى عن البشرية في مستوى أعلى من البشر. وعنده: ١) إن الإنسان لا يصير إنساناً تاماً إلا أن يتجاوز، ويتنوع ما يُلغي، بشريته الطبيعية. ذلك أن المُسارة



ترجع اجمالاً إلى خبرة مفارقة، تتخطى النطاق الطبيعي، من الموت والانبعاث، أو الولادة الثانية. (٢) ان طقوس المسارة المؤلفة من تجربتي الموت والانبعاث الرمزيين أسسها الآلهة والأبطال المحضرون أو الأسلاف الميطيقيون: ان لهذه الطقوس اصلاً يتخطى الإنسان. والمريد اذ يؤديها فإنما يسلك مسلكاً إلهياً يتخطى الإنسان. يجب ان نتوقف عند هذه النقطة قليلاً، لأنها تبين لنا مرة أخرى ان الإنسان الديني يريد ان يكون في مستوى أعلى من المستوى الطبيعي، وأنه يسعى إلى ان يخلق نفسه على الصورة المثالية التي أوحى له بها الأساطير. ان الإنسان البدائي يسعى إلى الوصول إلى مثل أعلى ديني للبشرية. وفي هذا السعي نجد جرثومة جميع الأخلاقيات التي صاغتها أخيراً المجتمعات المرفقية. طبعاً، في المجتمعات غير الدينية المعاصرة، لم يعد للمسارة وجود بما هي أداء ديني. لكن أنماط المسارة، كما سنرى بعد قليل، مازالت موجودة، بالرغم من تجردها من القدسية تجرداً شديداً، في العالم المعاصر.

### ظاهراتية المسارة

تكشف المسارة بعامة عن ثلاثة اسرار: سر القدسي، وسر الموت، وسر الجنس. والطفل يجهل هذه الخبرات جميعاً. اما المستلم فيتعلمها ويجعلها جزءاً متمماً لشخصيته الجديدة. نضيف انه اذا كان المستلم يموت عن حياته الطفولية، الدنيوية، غير المتجددة الولادة، لكي يأتي إلى وجود جديد، مقدس، فإنه ايضاً يولد ولادة ثانية في نمط من الوجود يتيح له المعرفة، العلم. فالمستلم

ليس «مولوداً جديداً»، أو «مبعوثاً» وحسب، وإنما هو أيضاً إنسان يعلم، يعرف الأسرار، إنسان شاهد رؤى من صعيد ميتافيزيقي. ففي أثناء تعلمه في الدغل يتعلم الأسرار المقدسة: الأساطير المتعلقة بالآلهة، ودور وأصل الآلات الطقسية المستعملة في مراسم المُسَاوَة (الشور الخوار، سكاكين الصوان التي تستعمل في الختان، الخ.) فالمُساوَة تساوي النضج الروحي، وفي كل التاريخ الديني للإنسان، تقابل دوماً هذا الموضوع: المستلم هو الذي عرف الأسرار، هو الذي يعلم.

تبدأ المراسم في كل مكان بفصل المريد عن عائلته واعتزاله في الدغل، فهو رمز إلى الموت. فالغابة، والدغل، والظلمة - كل هذه ترمز إلى المابعد، «الجحيم». في أمكنة معينة، يُعتقد أن نمرأ يأتي ويحمل على ظهره المرشحين إلى الأدغال. والأشقر (كل حيوان وحشي أشقر) يجسد السلف الميطيقي، معلم المُساوَة، الذي يقود الجهال إلى الجحيم. في أمكنة أخرى، يُعتقد أن المريد يتلعه هُولة: في بطن الهولة يسود الليل الكوني: إنه العالم الجنيني للوجود، على الصعيدين الكوني والحياة البشرية. وفي أقاليم كثيرة، يوجد في الدغل كوخ للمُساوَة، حيث يخضع المرشحون من الفتيان لجانب من الاختبارات ويتقفون بالتقاليد السرية التي تحفظها القبيلة. إن كوخ المُساوَة يرمز إلى بطن الأم، وموت المريد يعني انكفاءه إلى الحالة الجنينية. لكن هذه الحالة يجب ألا نفهم منها معناها الفيزيولوجي وحسب، وإنما معناها الكوسمولوجي أيضاً. وهي تعني تساوي انكفاء مؤقتاً إلى عالم الممكن (الموجود بالقوة)، ما قبل الكوني.

وهناك طقوس أخرى تسلط الضوء على رمزية المُسَاوَة. فعند بعض الأقوام، يُدفن المرشحون أو يُمدّدون في قبور حفرت حديثاً، أو يُغطّون بأغصان الشجر، ويظلّون بلا حراك كالمتوت، أو يُمرغون بذُرُورٍ أبيض حتى يبدوا كالأشباح ويُقلّد المریدون حركات الأشباح؛ لا يستخدمون أصابعهم في تناول الطعام، بل يتناولونه مباشرة بالأسنان، إذ الاعتقاد أن أرواح المتوت تفعل ذلك. ثم إن للتعذيب الذي يتعرض له المرشحون هذا المعنى، في جملة معان كثيرة أخرى: فالشياطين معلّمو المُسَاوَة، أي الأسلاف الميطيقيون، يعذبون المرید أو يشوونه على النار. هذه الآلام الفيزيائية تنطبق على وضع من «يأكله» الشيطان الأشقر، ويتقطع في شدة هُولة المُسَاوَة، ويبتلعه. فأعمال التشويه (قلع الأسنان، قطع الأصابع، الخ.) محمّلة، هي أيضاً، برمزية الموت. وأغلب أعمال التشويه ذات صلة بالهيات القمر. فالقمر يغيب دورياً لكي يعود فيولد ثانية بعد ثلاث ليال. تبين الرمزية القمرية أن الموت هو الشرط الأول لكل ولادة ثانية مستطيقية (= صوفية).

زيادة على العمليات النوعية، كالمختان مثلاً، خارج نطاق أعمال التشويه التي تجري في المُسَاوَة، هناك علامات خارجية أخرى تعطى للموت والانبعاث: الوشم، التضحيات. أما رمزية الولادة الثانية المستطيقية، فتظهر تحت أشكال كثيرة. فالمرشحون يتلقون أسماء أخرى غير أسمائهم الأصلية تصبح منذ ذلك الحين أسماءهم الحقيقية. عند بعض القبائل، يُعتقد أن المرشحين الغتيان قد نسوا كل

شيء عن حياتهم الماضية. بعد المُسارّة مباشرة يأكلون كما يأكل الأطفال، ويُقادون من أيديهم لكي يتعلموا جميع الأعمال من جديد، كما يُعلّم الأطفال الرضّع. بصورة عامة، يتعلمون في الدغل لغة جديدة، أو على الأقل مفردات سرية، لا يفهمها غير المستلمين. كما رأينا، مع المُسارّة يعود كل شيء فيبدأ من جديد. أحياناً يعبرون عن رمزية الولادة الثانية بحركات حسية. عند بعض قبائل البانطو، يكون الغلام، قبل ختانه، موضوعاً لمراسم تُعرف باسم «الولادة من جديد»<sup>(1)</sup> يضحي الأب بكبش، ثم بعد ثلاثة أيام يلف بغشاء معدة الكبش وجلده. لكن قبل أن يلف الغلام، يقتضي أن يصعد على السرير ويصرخ كالمولود الجديد. ويبقى في داخل جلد الكبش مدة ثلاثة أيام. وعند نفس القبيلة، يُدفن الأموات في جلود الكباش وفي الوضع الجنيني. أن رمزية الولادة الجديدة المييطيقية بالارتداء الطقسي لجلد حيوان هي أمر ثابت في الثقافات التي بلغت مرحلة مرتقبة من التطور (الهند، مصر القديمة).

في مشاهد المُسارّة، تتواكب رمزية الولادة، على نحو شبه دائم، مع رمزية الموت. في سياق المُسارّة، يعني الموت تجاوز الشرط الدنيوي، غير المقدس، شرط «الإنسان الطبيعي»، الجاهل للقدسي، الأعمى عن الروح. أن المُسارّة تكشف للمستلم تدريجياً عن أبعاد الوجود الحقيقية. أن المُسارّة، إذ تعرّفه بالقدسي، تجبره على الاضطلاع بمسؤولية الإنسان. لتتذكر هذه الواقعة الهامة: يُترجم

(1) M. CANNY, «The Skin of Rebirth» (Man, Juillet 1939, No 91), PP. 104 - 105.

بلوغ الروحانية في المجتمعات القديمة برمزية الموت والولادة الجديدة.

## أخويات الرجال وجمعيات النساء السرية

الانتساب إلى جمعيات الرجال يفرض طقوساً تستعمل فيها نفس التجارب وتستعاد نفس مشاهد المسارة. غير أن الانتساب إلى أخويات الرجال ينطوي على انتخاب: كل الذين استلموا سر سن الرشد يحظر عليهم دخول الجمعيات السرية، رغم أنهم جميعاً يرغبون في ذلك.

نقتصر على مثال واحد فقط: عند قبائل «مانجاو بندا» الإفريقية جمعية سرية تعرف باسم «نغاكولا» بحسب الأسطورة التي تروى للمريدين، في أثناء المسارة، كان للهولة «نغاكولا» سلطة قتل الناس، يبتلعهم ثم يتقيّوهم. يوضع المستلم في كهف يرمز إلى جسم الهولة، حيث يسمع صوتاً كثيباً يأتيه من قبل «نغاكولا»، ثم يُجلد (بالسوط) ويخضع للتعذيب، ثم يقال له إنه «الآن دخل في بطن نغاكولا»، وأنه يجري هضمه. وبعد أن يلقي تجارب أخرى، يعلن المعلم الذي يلقن السر أن «نغاكولا» الذي أكل المريد قد أعاده الآن.

هنا نعود فنجد رمزية الموت المتمثلة في ابتلاع الهولة للمستلم، وهي رمزية تلعب دوراً كبيراً في مسارات سن الرشد. ونلاحظ مرة أخرى أن طقوس الانتساب إلى أخوية سرية تتطابق في كل نقطة من نقاطها مع مسارات سن الرشد: اعتزال، أعمال تعذيب وتجارب، موت وانبعاث، إطلاق اسم جديد، تعليم لغة سرية، الخ.

ثمة مُسَارَات انثوية . يجب الا نتوقع ان نجد في طقوس المسارة والأسرار المحفوظة للنساء نفس الرمزية ، أو بتعبير أدق ، نفس التعبيرات الرمزية المماثلة للتعبيرات التي نجدها عند أخويات الرجال . لكننا نتيبن بسهولة عنصراً مشتركاً : خبرة دينية عميقة تقوم في اساس جميع هذه الطقوس والأسرار ، هي بلوغ الحالة القدسية ، على نحو ما تتكشف فيه في بلوغ شرط المرأة ، الذي يشكل الهدف في كثير من طقوس مسارة سن الرشد (عند الذكور) ، بمقدار ما تشكله في الجمعيات السرية الأنثوية .

تبدأ المُسَارَة مع الحيض الأول . يُندَر هذا العَرَض الفيزيولوجي بانقطاع الصبية واقتلاعها من عالمها العائلي : تنعزل على الفور وتتفصل عن الجماعة . يحدث الانفصال في كوخ مخصوص ، في الدغل أو في ركن مظلم من البيت . على الفتاة ان تتخذ وضعاً خاصاً ، غير مريح نوعاً ، وأن تتحاشى رؤية الشمس أو أن يلمسها أحد . عليها ان تلبس ثوباً خاصاً ، أو تحمل علامة خاصة ، كأن يكون لوناً معدداً من أجلها ، وأن تغتذي من طعام غير نضيج .

الفصل والعزل في الظل ، أو في كهف مظلم ، أو في الدغل - كل هذا يذكرنا بموت المُسَارَة يموته الغلمان المنعزلون في الغابة ، ثم تغلق عليهم الكهوف . ومع ذلك فهناك فرق بالنسبة للفتيات هو أن هؤلاء يتم فصلهن مباشرة بعد الحيضة الأولى . فهو إذن فصل فردي ، بينما يتصف فصل الفتيان بالجماعية . ويفسر هذا الفرق الجانب الفيزيولوجي من نهاية الطفولة ، وهو جانب ظاهر عند الفتيات . ومع

ذلك تنتهي الفتيات بتشكيل مجموعة، وعندئذ يتم تسليمهن السر  
جماعياً على يد مرشدات عجائز.

أما الجمعيات النسائية السرية فتظل على اتصال دائم بسر  
الولادة والخصوبة فسر الوضع، أي اكتشاف المرأة أنها خالقة على  
صعيد الحياة، يشكل خبرة دينية لا يمكن التعبير عنها بلغة الخبرة  
الدكرية. إن هذا يبين لنا لماذا افسحت عملية الوضع مجالاً للطقوس  
السرية المؤنثة التي تنظم أحياناً في أسرار حقيقية. هذا، وما زلنا نجد  
آثاراً من هذه الأسرار حتى في أوروبا<sup>(1)</sup>.

كما هو الشأن عند الرجال، هناك أشكال كثيرة من الجمعيات  
النسائية تتزايد فيها الأسرار زيادة مطردة. فهناك، على سبيل المثال،  
المسارة العامة التي تجتازها كل فتاة وكل زوجة شابة، وهي المسارة  
التي تؤدي إلى إقامة مؤسسة الـ «وايبربونده». ثم هناك جمعيات الأسرار  
النسائية، كما هو الحال في أفريقيا أو في الأزمنة القديمة، ومثالها  
جماعات «الميناد» Ménades. لكن هذه الأخويات النسائية الأسرارية  
انقرضت منذ زمن بعيد.

## الموت والمسارة

احتلت رمزية المسارة وطقوسها، التي تتألف من ابتلاع هولة  
للمريد، مكانة كبيرة في المَسَارَات بمقدار ما احتلته من مكانة في

(1) Cf. R. WOLFRAM, «Weiberbünde» Zeitschrift für Volkskunde, 42, 1933, PP.  
143 sq.

اساطير البطولة وميثولوجيات الموت. ان رمزية العودة إلى البطن ذات قيمة كوسمولوجية دائماً. فالعالم كله يعود رمزياً مع المريد إلى الليل الكوني لكي يُخلق من جديد، اي لكي يُولد ولادة ثانية. وقد رأينا في الفصل الثاني ان الأسطورة الكونية تُتلى لأغراض شفائية. ولكي يُشفى المريض، يجب خلقه من جديد، والنموذج الأصلي للولادة هو ولادة الكون (كوسموغونيا). يجب إبطال عمل الزمان، استعادة اللحظة الفجرية السابقة على الخلق: على الصعيد البشري، ان هذا يعني وجوب العودة إلى «الصفحة البيضاء» من الوجود، إلى البداية المطلقة، عندما لم يكن شيء ملوث موجوداً بعد، ولم يكن شيء فاسد موجوداً بعد.

الدخول في بطن الهولة - أو «التكفين» رمزياً، أو إغلاق كوخ المُسارة على المرشح - معناه الانكفاء إلى الأولي غير المتميز، إلى الليل الكوني. ان الموت في طقس المُسارة يكرر العودة النموذجية إلى العماء، فيتيح تكرار ولادة الكون، وإعداداً للولادة الجديدة. وأحياناً يتحقق الانكفاء إلى العماء بالمعنى الحرفي للكلمة: يحدث هذا في أمراض المُسارة التي تنزل بمن سوف يكونون «شامانيين» في المستقبل، وغالباً ما يُعتبرون مجانين حقيقيين. هنا نشهد أزمة كلية تفضي أحياناً إلى انحلال للشخصية<sup>(1)</sup>. هذا «العماء النفسي» علامة على أن الإنسان الديوي «يتحلل»، وأن شخصية جديدة توشك أن تولد.

(1) Cf. M. ELIADE, Le Chamanisme, P. 36 sq.



ان هذا يتيح لنا ان نفهم لماذا نجد نفس ترسيم المُسارة هذا [الآلام، الموت والانبعاث (الولادة الثانية)] في جميع الأسرار، في طقوس البلوغ كما في الطقوس التي تؤدي إلى الانتساب إلى جمعية سرية. ولماذا تنفك رموز نفس المشهد في الخبرات الجوانية المثيرة التي تسبق النداء الصوفي (عند البدائيين، «أمراض المسارة» التي تنزل بمن سوف يصبحون شامانيين في المستقبل). ان إنسان المجتمعات البدائية يجهد للتغلب على الموت بتحويله إلى طقس عبور. بعبارة أخرى، عند البدائيين، يموت الإنسان دائماً عن شيء ليس بالجوهرى؛ يموت خصوصاً عن الحياة الدنيوية، باختصار، يعتبر الموت عن الحياة الدنيوية المُسارة العليا، بداية لوجود روحي جديد.

أو: الولادة والموت والولادة الثانية هي لحظات ثلاث من سر واحد. وقد انصب كل جهد الإنسان القديم على ان يبين أن ليس ثمة انقطاع فيما بين هذه اللحظات الثلاث. لا يمكن التوقف عند واحدة من هذه اللحظات الثلاث: الحركة، إعادة الولادة، تتعاقبان إلى ما لا نهاية. ولذلك كان ما ينفك يكرر ولادة الكون للتأكد من انه اتقن صنع شيء ما: مثلاً، طفل أو بيت أو نداء روحي. وهذا يفسر لنا لماذا نلاقي القيمة الكوسموغونية دائماً في طقوس المُسارة.

## «الولادة الثانية والولادة الروحية»

ان مشهد المُسارة، أي الموت عن الشرط الدنيوي الذي تعقبه ولادة جديدة في عالم قدسي، هو عالم الآلهة، يلعب هو أيضاً دوراً كبيراً في الديانات المرتقية. ومثاله الشهير التضحية الهندية التي ترمي

إلى نيل السماء (الجنة) بعد الموت حيث الإقامة مع الآلهة، أو نيل صفة الآلهة (دواتما). بعبارة أخرى، انه بالتضحية يتوفر شرط يتجاوز الشرط البشري. وهذه النتيجة يمكن مقارنتها بنتيجة المُسَارَات القديمة. والحال يجب ان يكون المقرب قد قدّسه الكهنة قبل القربان. وهذا التقديس (دكشا) يتألف من رمزية مُسَارَة ذات بنية تتعلق بفن التوليد. بالتخصيص، ان (الدكشا) يحوّل المقرب طقسياً إلى جنين ويولده مرة ثانية.

تُلحّ النصوص مطوّلاً على نظام المماثلة الذي بفضلها ينكفىء المقرب إلى الرحم لكي يولد ولادة جديدة. هو ذا مثلاً ما نقوله الـ «إيتاريا براهمانا» (٣٢١) بهذا الخصوص: «الكهنة يحوّلون إلى جنين من يهبونه التقديس (دكشا). يرشونه بالماء: الماء هو بزرّة الحياة... يُدخلونه في حظيرة خاصة: الحظيرة الخاصة هي رحم الذي يصنع الـ «دكشا»، يُدخلونه في الرحم الذي يناسبه ثم يغطّونه بثوب، والثوب هو السايياء... يوضع فوق السايياء جلد غزال اسود، والحقيقة ان المشيمة هي فوق السايياء... كفاه مطبقتان. لأن الجنين يظل مطبقاً كفيه مادام في بطن أمه، والطفل عندما يولد تكون يداؤه مطبقتين... يخلعون عنه جلد الغزال لكي ينزلوه في المغطس، ولذلك تأتي الأجنة إلى الدنيا بعد ان يُخلع عنه المشيمة. يحتفظون له بشباب لكي يدخل فيها، ولذلك يولد الطفل وعليه غشاء السايياء». المعرفة المقدسة، وتجاوزاً الحكمة، هما ثمرتان لمُسَارَة. ومما له مغزى ان نجد رمزية التوليد ترتبط بيقظة الوعي العليا في الهند، كما نجدها كذلك عند الإغريق. لذلك لم يكن من قبيل الاعباط ان يُشبه

سقراط بالقابلية : لقد كان يُعين الإنسان على ولادة وعيه ، وبذلك كان يُولد «الإنسان الجديد» . وإنما لتجد نفس الرمزية في التقليد البوذي : كان الراهب ينبد اسم عائلته ويصبح «ابن بوذا» (ساكيا - بوتو) ، لأنه وُلد بين القديسين (آريا) . وكما كان يقول «كسابا» متحدثاً عن نفسه : «ابن طيبعي للسعداء ، مولود من فمه ، مولود من ذمّا (العقيدة) ، كوّنته الذمّا» الخ . (ساميون نيكايا 221 ، II).

هذه الولادة الاستسرارية تنطوي على موت عن الوجود الدنيوي . وقد حفظت لنا الهندوكية ترسيم هذه الولادة كما حفظته البوذية . فاليوغي «يموت عن هذه الحياة» لكي يولد في نمط آخر من الوجود : الوجود المتمثل في الخلاص . كان البوذا يعلم الطريق والوسائل التي تؤدي إلى الموت عن الشرط البشري الدنيوي ، أي عن العبودية والجهل ، لكي يولد ثانية في الحرية والغبطة والزفان التي لا تتقيد بشرط . والاصطلاح الهندي للولادة الجديدة الاستسرارية يذكّرنا أحياناً بالرمزية القديمة التي تشير إلى «الجسد الجديد» الذي يناله المستجد بفضل المُسارّة . وقد أعلن ذلك البوذا نفسه : «اطلعت تلاميذي على الوسائل التي يستطيعون بها أن يخلقوا ، انطلاقاً من هذا الجسد (المكوّن من العناصر الأربعة الفاسدة) ، جسداً آخر من جوهر عقلي (روبيم مانو مايام) ، تام الأطراف ، ويتمتع بملكات عالية (ابهي نندريام) .

اليهودية الاسكندرانية ، ثم المسيحية ، تناولت الولادة الثانية ، أو الولادة بما هي وصول إلى الروحانية ، وأضفت عليها قيمة جديدة . وقد استعمل فيلون كثيراً موضوع الولادة في حديثه عن الولادة الروحية .

(يراجع مثلاً ابراهام ٩٩، xxx). والقديس بولس تكلم، بدوره، على «الابن الروحي»، والأبناء الذين تكاثروا بالإيمان: «إلى تيطس الابن الصريح حسب الإيمان المشترك» (رسالة إلى تيطس ١ : ٤). «اطلب اليك لأجل ابني أنيسيمس الذي وَلَدْتُهُ في قيودي» (رسالة إلى فيلمون؛ ١٠).

لا جدوى من التوقف عند الفروق بين «الأبناء» الذين كان «يلدهم» القديس بولس «في الإيمان»، وبين «أبناء بوذا»، أو الذين كان «يلدهم» سقراط، أو «المولودين الجُدد» في المسارات البدائية. فالفروق فيما بينها واضحة. لقد كانت قوة الطقس نفسها هي التي كانت «تقتل» و«تحيي» المرید في المجتمعات القديمة، كما أن قوة الطقس هي التي كانت تحول المقرَّب الهندوكي إلى «جنين». وأما البوذا، كان «يلد» من «فيه»، أي عن طريق تبليغ تعليمه («دَما»)، فبفضل المعرفة العليا التي توحى بها الـ «دَما»، كان التلميذ يولد في حياة جديدة، قادرة على أن توصله إلى عتبة الترفانا. وكان سقراط يزعم انه لا يمارس عملاً آخر غير عمل القابلة: لقد كان يساعد على «وضع» الإنسان الحقيقي الذي يحمله كل إنسان في أعماق أعماق نفسه. وكان الوضع مختلفاً عند القديس بولس: كان يلد «أبناءً روحيين» بالإيمان، أي بفضل سر أسسه المسيح نفسه.

من ديانة إلى أخرى، ومن عرفانية أو حكمة إلى أخرى، ما ينفك موضوع الولادة الثانية، وهو الموضوع القديم، يغتنى بقيم جديدة تغير أحياناً من محتوى الخبرة تغييراً جذرياً. وبقي مع ذلك عنصر مشترك، ثابت، لا يتغير، يمكننا تعريفه على النحو التالي:

بلوغ الحياة الروحية يتألف دوماً من موت عن الشرط الدنيوي، تعقبه ولادة جديدة.

## المقدس والدنيوي في العالم الحديث

توقفنا عند المسألة وطقوس العبور، لكن كان علينا ان نتقصى الموضوع حتى آخره، لأننا لا نستطيع ان نزعج اننا أتينا على بعض الجوانب الأساسية منه. ومع ذلك، فإننا اذ توسعنا قليلاً في المسألة، فقد كان علينا ان نغفل عن ذكر سلسلة من الأوضاع الاجتماعية - الدينية ذات الأهمية الكبيرة في فهم الإنسان الديني: لم نتكلم عن السلطان ولا عن «الشامان» والكاهن والمحارب، الخ. والسبب ان هذا الكتاب اردناه ان يكون مختصراً، وبالتالي غير كامل، اذ لا يشكل غير مدخل سريع إلى موضوع بالغ السعة.

الموضوع واسع، وهو يعني مؤرخ الأديان والعالم الانثولوجي وعالم الاجتماع، مثلما يعني المؤرخ وعالم النفس والفيلسوف. اذا عرفنا الأوضاع التي يتخذها الإنسان الديني، ودخلنا في عالمه الروحي، فهذا يعني اننا ندفع المعرفة العامة بالإنسان إلى الامام. صحيح ان اكثر الأوضاع التي يتخذها الإنسان الديني في المجتمعات البدائية وفي الحضارات القديمة قد تجاوزها التاريخ منذ مدة طويلة، الا انها لم تتلاش بدون ان تترك آثاراً: لقد ساهمت في جعلنا على ما نحن عليه اليوم، فهي تشكل جزءاً من تاريخنا الخاص.

قلنا مراراً ان الإنسان الديني يتخذ نمطاً من الوجود النوعي في العالم، وبالرغم من العدد الكبير من الأشكال التاريخية - الدينية، الا

ان هذا النمط النوعي معترف به دائماً. فالإنسان الديني، مهما كان السياق التاريخي الذي يغرق فيه، يؤمن دائماً بأن حقيقة مطلقة موجودة دائماً، وأعني بها المقدس الذي يخترق هذا العالم ويتجلى فيه في نفس الوقت؛ وهو لهذا السبب يقدس العالم ويعترف به حقيقةً. فهو يؤمن ان للحياة اصلاً مقدساً، وان الوجود البشري يحرك جميع قواها الكامنة بمقدار ما هو وجود ديني، أي: المشاركة في (الحقيقة). فالآلهة قد خلقت الإنسان والعالم، والأبطال المحضرون اتموا فعل الخلق، وتاريخ جميع هذه الأعمال الإلهية وشبه الإلهية قد حفظته لنا الأساطير. ان الإنسان، إذ يحين التاريخ المقدس، ويحاكي المسلك الإلهي، يقيم ويبقى بالقرب من الآلهة، أي في الحقيقي وذو المعنى.

من السهل ان نرى كل ما يفصل هذا النمط من الوجود عن عالم وجود الإنسان غير الديني. لكن هناك قبل كل شيء هذه الواقعة: الإنسان غير الديني يرفض الوجود المفارق، ويقبل نسبية «الحقيقة»، ويحدث له ان يشك حتى في معنى الوجود. لقد عرفت الثقافات الكبيرة الأخرى، هي أيضاً، اناساً غير دينيين، وليس من المستحيل ان يوجد منهم حتى في المستويات القديمة من الثقافة، علي الرغم من ان الوثائق لم تؤكد لنا ذلك حتى الآن. لكن ازدهار الإنسان غير الديني انما حدث فقط في المجتمعات الغربية الحديثة. الإنسان الحديث غير الديني يتخذ وضعاً وجودياً جديداً: لا يعترف إلا بأنه موضوع وأداة للتاريخ، ويرفض كل دعوة إلى الوجود المفارق. بعبارة أخرى، لا يقبل نموذجاً بشرياً خارج الشرط البشري، كالذي انصرف

الإنسان الديني إلى فك رموزه في مختلف الأوضاع التاريخية .  
الإنسان يخلق نفسه ، ولا يصل إلى خلق نفسه تماماً الا بمقدار ما  
يتجرد من القداسة ويجرد العالم منها . القدسي هو العقبة بامتياز امام  
حريته . لن يصير هو نفسه الا ان يثوب إلى رشده جذرياً . لن يصير حراً  
حقاً إلا ان يقتل الإله الأخير .

ليس من حقنا هنا ان نبحث في هذا الموقف الفلسفي . وعلينا  
ان نقتصر على القول ان الإنسان الحديث غير الديني تحمل ، في  
نهاية المطاف ، وجوداً مأساوياً ، وأن اختياره الوجودي هذا لا يخلو من  
عظمة . لكن هذا الإنسان غير الديني ينحدر من سلالة الإنسان  
الديني ، وهو صنيعة أيضاً ، اراد ذلك أم لم يُرد ، وقد تكون انطلاقة من  
اوضاع اتخذها أسلافه . ملاك القول ، ان الإنسان الحديث غير الديني  
جاء نتيجة سياق التجريد من القدسية . وكما ان « الطبيعة » nature  
نتجت تدريجياً عن دُنْيَوِيَّة « الكون » cosmos ، بما هو من صنع الله ،  
كذلك نتج الإنسان الدنيوي عن تجريد الوجود البشري من القدسية .  
لكن هذا ينطوي على ان الإنسان غير الديني قد تكون على النقيض  
من سلفه ، من خلال سعيه الدائب إلى « التفرغ » من كل تدنٍ ، ومن  
كل معنى يتجاوز الشرط البشري . يتعرف إلى نفسه بمقدار ما  
« يتخلص » و « يتطهر » من « خرافات » السلف . بعبارة أخرى ، ان الإنسان  
الدنيوي ، اراد ذلك أم لم يرد ، لم يزل يحتفظ بآثار من سلوك الإنسان  
الديني ، لكنها خالية من المعاني الدينية . مهما فعل فهو وارث . لا  
يستطيع ان يلغي ماضيه نهائياً مادام هو نفسه نتاجاً لهذا الماضي . يقوم  
تكوينه على سلسلة من أفعال النفي والرفض ، لكنه يظل مسكوناً

بالحقائق التي جحدتها . ولكي يتصرف في عالم يملكه، جرد العالم الذي كان يعيش فيه اسلافه من القدسية . لكنه، لكي يصل إلى هذه الغاية، اضطر إلى السير في عكس الاتجاه الذي سلكه من سبقوه . وإنه ليحس هذا المسلك دائماً، تحت هذه الصورة أو تلك، مستعداً لأن يتحيز في أعماق وجوده .

إن الإنسان غير الديني، في حالته الصرفة، ظاهرة تكاد أن تكون نادرة، حتى في أكثر المجتمعات الحديثة تجرداً عن القداسة . فغالبيتهم الذين «لا دين لهم» مازالوا يتكئون دينياً، على غير علم منهم . لا نريد بذلك فقط جملة «الخرافات» أو «المحرمات» التي يؤمن بها الإنسان الحديث، وهي لها جميعاً بنية وأصل سحري - ديني، وإنما الميثولوجيا المموهة والطقوسيات المنحطة التي مازال يمتلكها . فالمباهج التي تصاحب السنة الجديدة، حين تجري الإقامة في منزل جديد، تنم على بنية طقس تجديدي أضيفت عليه صفة الدنيوية . وإننا لنجد نفس الظاهرة في الأعياد وأفراح الزواج أو الولادة، أو الحصول على وظيفة جديدة، أو ارتقاء في السلم الاجتماعي، الخ . يمكن أن يؤلف عمل كامل عن أساطير الإنسان الحديث، عن الميثولوجيات المموهة في المشاهد التي يحبها، والكتب التي يقرأها . فالسينما، هذا «المصنع للأحلام»، تتناول ما لا حصر له من الموضوعات الميثيقية: الصراع بين البطل والهولة، القتال والتجارب الاستمرارية، الأشخاص والصور النموذجية («البنت الصبية»، «البطل»، «المراثي الفردوسية»، «الجحيم»، الخ .) . حتى القراءة تتألف من وظيفة ميثولوجية، لا لأنها تحل محل تلاوة الأساطير في



المجتمعات القديمة والأدب الشفهي، الذي لم يزل حياً في المجتمعات الزراعية في أوروبا وحسب، وإنما لأن القراءة تتيح للإنسان الحديث «خروجاً من الزمان»، شبيهاً بالخروج الذي يتم بواسطة الأساطير. «قتل الوقت برواية بوليسية، أو الدخول في عالم زمني غريب، كل هذا ينجّ به خارج ديمومته الشخصية ويجعله جزءاً متمماً من إيقاعات أخرى، تحيه في «تاريخ» آخر.

الغالبية العظمى من الذين «لا دين لهم» ليسوا متحررين تماماً من المسلك الديني، من اللاهوت والميثولوجيا. فهم أحياناً مثقلون بكل «المخبطة» سحرية - دينية، لكنها منحطة إلى درجة الكاريكاتور، ولهذا السبب كان من الصعب التعرف عليها. إن سياق تجريد الوجود البشري من القداسة قد أدى أكثر من مرة إلى أشكال هجينة من السحر المنحط وإلى التدين القرداني. لا نريد بذلك «الديانات الصغيرة» التي لا حصر لها، التي تتكاثر في جميع المدن الحديثة، ولا الكنائس أو الفرق أو المدارس الغيبية الزائفة أو الروحانيين الجدد أو من يزعمون أنهم «هرمزيون»، إن هذه الظواهر جميعها مازالت تدخل في نطاق التدين، حتى عندما يكون الأمر متعلقاً بصورة دائمة تقريباً، بمظاهر التحولات المزيفة المنحرفة. كذلك لا نريد مختلف الحركات السياسية ومذاهب النبوات الاجتماعية التي من السهل تبين بنيتها الميثولوجية وتعصبها الديني. حسبنا أن نذكر بالبنية الميثولوجية للشيعوية ومعناها الإسكاتولوجي (= الأخروي). يتناول ماركس ويطول إحدى الأساطير الإسكاتولوجية الكبرى من أساطير العالم الآسيوي - المتوسطي، أي: دور الخلاص الذي يقوم به الرجل

الصالح («المختار»، «الممسوح بالزيت»، «البريء»، «الرسول»؛ وفي أيامنا: البروليثاريا)، الذي تكون آلامه سبباً في تغيير الوضع الأنطولوجي للعالم. فالمجتمع بلا طبقات، وما يترتب عليه من غياب للشدائد التاريخية، يجد أدق سابقة له في أسطورة العصر الذهبي الذي يعين بداية التاريخ ونهايته، على ما ترويه كثير من التقاليد. لقد أغنى ماركس هذه الأسطورة العظيمة التي تشكل عقيدة مسيانية يهودية - مسيحية؛ فمن جهة، هناك الدور النبوي والوظيفة السوتريولوجية التي اعترف بها للبروليثاريا. ومن جهة أخرى، هناك الصراع النهائي بين الخير والشر، الذي يمكن مقارنته بدون صعوبة بالصراع الأبوكالпти بين المسيح والدجال (= ضد المسيح)، يعقبه انتصار حاسم للأول. كذلك ان من الأمور الهامة ان يعود ماركس فيأخذ في حسابه الأمل الإسكاتولوجي اليهودي - المسيحي، موظفاً إياه من أجل نهاية مطلقة للتاريخ. انه في هذا يفترق عن الفلسفات الأخرى من المدرسة التاريخية (مثلاً، كروتشيه، اوراتيجا إي كاسيت) التي ترى ان الشدائد التاريخية هي من طبيعة الشرط البشري ولا يمكن ابدأ إلغاؤها تماماً.

لكن التصرفات الدينية المموّهة أو المنحطة لا نجدها في «الديانات الصغرى»، أو في المستطيقا السياسية وحسب، وانما نجدها أيضاً في الحركات التي تدعي بصراحة انها علمانية، بل وحتى مناوئة للدين. ففي مذهب العري، أو في الحركات التي تبغي الحرية الجنسية المطلقة - في هذه الإيديولوجيات يمكننا ان نفك رموز آثار من «الحنين إلى الفردوس»، الرغبة في استعادة الحالة العذنية قبل

السقوط، أي عندما لم تكن المخطيئة موجودة ولم يكن ثمة انقطاع بين ملذات الجسد والوعي. كذلك من المهم ان نعرف مقدار استمرار المرائي الاستمرارية في كثير من الأفعال والحركات التي يؤديها الإنسان غير الديني في هذه الأيام. ندع جانباً، بالطبع، الأوضاع التي مازالت فيها نماذج معينة من المُسارّة «منحطة». مثلاً، الحرب، وفي المحل الأول القتال فيما بين الأفراد (خصوصاً بين الطيارين) - وهذه مآثر تتكون من «تجارب» تشبه المسارّات العسكرية التقليدية، هذا على الرغم من ان المتقاتلين في هذه الأيام لم يعودوا يأخذون في حسابهم ما تنطوي عليه «تجاربهم» من معنى عميق، وأنهم قلما يستفيدون مما فيها من قيم المُسارّة. لكن حتى التقنيات الحديثة نوعياً، كالتحليل النفسي، مازالت تحتفظ بتصميم المُسارّة. فالمريض يُطلب منه ان ينزل إلى اعماق نفسه، وإحياء ماضيه، ومواجهة رضوضه من جديد. من وجهة نظر شكلية، هذه العملية محفوفة بالخطر إذ تشبه نزول المستلم إلى «الجحيم»، وسط الأشباح، وقتاله للهولة. وكما ان المستلم يجب ان يخرج ظافراً من تجاربه: «يموت» و«يبعث» لكي يستطيع ان يصل إلى وجود مسؤول تماماً، منفتح على القيم الروحية، كذلك يجب على المحلّل في ايامنا ان يواجه «خافيته» الخاصة، المسكونة بالأشباح، لكي يسترد عافيته ووحدته النفسية، وعالم القيم الثقافية.

لكن المُسارّة وثيقة الصلة بنمط الكينونة في الوجود البشري حتى ان عدداً كبيراً من الحركات والأفعال التي يأتيها الإنسان الحديث مازال يكرر فيها مشاهد المسارّة، مرات كثيرة. «الصراع مع الحياة»،

«المِخَن»، «المصاعب» التي تعترض عملاً أو حياة - كل هذه تكرر على نحو ما التجارب الاستمرارية: فالشاب، على أثر «الضربات» التي يلقاها، و«الآلام» و«العذابات» المعنوية، بل وحتى الفيزيائية، التي يخضع لها، إنما «يجرَّب» نفسه، ويتعرف على إمكانياته، ويدرك قواه، وينتهي إلى أن يصير هو نفسه، بالغاً روحياً وخالقاً (طبعاً، المقصود هنا بالروحانية كما هي مفهومة في العالم الحديث). ذلك أن كل وجود بشري يتألف من سلسلة من التجارب، بتكرار اختبار «الموت» و«الانبعاث». ولهذا يُؤسَّس الوجود، في أفق ديني، بالمُساواة. ولعلنا نستطيع القول أن الوجود البشري، بمقدار ما يتم، هو نفسه مُساواة.

ملاك القول أن غالبية الذين «لا دين لهم» مازالوا يشاركون في الديانات المزيفة والميثولوجيات المنحطة. وليس في هذا ما يدهشنا مادام الإنسان الدنيوي هوسليل الإنسان الديني ولا يستطيع أن يلقي تاريخه، أي تصرفات أسلافه الدينيين، الذين جعلوه على ما هو عليه اليوم - خصوصاً وإن قسماً كبيراً من وجوده تغذّيه نبضات تأتيه من أعماق كيانه، من المنطقة التي تُدعى الخافية (= العقل الباطن). الإنسان الراسبونالي حصراً مفهوم مجرد لا تواجهه في الواقع ابداً. كل كائن بشري مكوّن في الوقت نفسه من فاعليته الواعية واختباراته غير العقلانية. فمحتويات الخافية ومباينتها تتكشف، عن مشابهاة مدهشة مع الصور والرموز الميثولوجية. لا نريد القول أن الميثولوجيات هي نتاج الخافية؛ ذلك أن نمط وجود الأسطورة هو بالضبط ما يكشف عن نفسه بما هو أسطورة، هو ما يعلن أن شيئاً قد تجلّى على نحو

مثالي . الاسطورة «نتاج» الخافية على نفس النحو الذي يمكننا القول فيه ان مدام بوفاري هي «نتاج» الزنا .

ومع ذلك ، فإن محتويات الخافية ومبانيها هي نتيجة أوضاع وجودية ترجع إلى الماضي السحيق ، ولاسيما الأوضاع الحرجة ، وهذا هو السبب الذي من اجله تكشف الخافية عن حالة دينية . كل أزمة وجودية تضع على بساط البحث من جديد ، في وقت واحد ، حقيقة العالم وحضور الإنسان في العالم : الأزمة الوجودية هي باختصار أزمة «دينية» مادام الوجود ، في المستويات القديمة من الثقافة ، يختلط بالقدسي ان اختبار القدسي هو الذي أسس العالم ، وحتى اكثر الأديان بدائية هي ، قبل كل شيء ، انطولوجيا ، بعبارة أخرى ، بمقدار ما ان الخافية هي نتيجة خبرات وجودية لاحصر لها ، لا يمكنها ألا تشبه مختلف العوالم الدينية . فالحل الديني هو الحل المثالي لكل أزمة وجودية ، لا لأنه يتكرر إلى ما لا حدود له وحسب ، وإنما لأنه اعتبر من أصل أعلى ، وبالتالي مُقَوِّماً بما هو وحي يتلقاه الإنسان من عالم آخر ، يتجاوز الشرط البشري . الحل الديني لا يحل الأزمة وحسب ، وإنما أيضاً يجعل الوجود «منفتحاً» على قيم لم تعد قيماً حادثة ولا خاصة ، فيتيح للإنسان ان يتجاوز الأوضاع الشخصية ، والوصول في نهاية المطاف إلى عالم الروح .

ليس يعنينا هنا ان نصوغ جملة النتائج التي تترتب على هذا التلازم بين محتويات الخافية ومبانيها من جهة ، وبينها وبين القيم الدينية من جهة ثانية . فقد كان علينا ان نشير إليه لكي نبين بأي معنى يشارك حتى اكثر الناس صراحةً في لا تدبته ، يشارك ، في أعماق

أعماقه، في مسلك مُوجّه دينياً. لكن «الميثولوجيات الخصوصية» عند الإنسان الحديث، أحلامه، هواجسه، طلائقه، الخ. لا تصل إلى حد الارتفاع إلى مستوى النظام الأنطولوجي للأساطير، لأن الإنسان الكلي لا يعيشها، ولا تجعل من وضع خاص وضعاً مثالياً. كذلك ان احزان الإنسان الحديث، اختبارات الحلمية أو الخيالية، رغم كونها «دينية» من وجهة نظر الشكل، إلا انها لا تشكل جزءاً كما هو الحال عند الإنسان الديني، من رؤية كونية ولا تؤسس لمسلك. هناك مثال يتيح لنا فهماً أفضل للفروق بين هاتين الطائفتين من الخبرات. ان فاعلية الخافية عند الإنسان الحديث لا تقف عند إظهاره على ما لا حصر له من الرموز، ولكل منها رسالة ينقلها، ومهمة يؤديها، بغرض تأمين توازن النفس أو إعادة إنشائه. الرمز لا يجعل العالم «منفتحاً» وحسب، وإنما يعين الإنسان الديني ايضاً على بلوغ ما هو كوني. بفضل الرموز يخرج الإنسان من وضعه الخاص وينفتح على العمومي والكوني. والرموز توقف الخبرة وتجعل منها فعلاً روحياً، بالمفهوم الميتافيزيقي للعالم. امام شجرة ما، وهي رمز شجرة العالم وصورة الحياة الكونية، كان إنسان المجتمعات قبل الحديثة قادراً على بلوغ أعلى الروحانية. بفهمه للرمز كان يستطيع ان يحيا في الكوني. الرؤية الدينية للعالم، والايديولوجية التي تعبر عنها، هي التي تسمح له في إثمار هذه الخبرة الفردية، و«الانفتاح» على الكوني. ان صورة الشجرة ما برحت تتكرر كثيراً في العوالم الخيالية عند الإنسان الحديث غير الديني: تشكل رمزاً لحياته العميقة، للدرامة التي تجري أحداثها في خافيته، والتي تعني تكامل حياته النفسية - العقلية، وبالتالي وجوده.

لكن، مادام رمز الشجرة لا يوقظ الوعي الكلي للإنسان في جعله «منفتحاً» على الكوني، لا يمكننا القول ان الرمز قد أدى وظيفته تماماً. لم «يخلص» الإنسان من وضعه الفردي الا جزئياً، فيما يتيح له مثلاً ان يعي أزمة العمق، ويعيد اليه التوازن النفسي المهدد وقتياً، إلا أنه لم يرفعه إلى الروحية، ولم يوفق إلى الكشف له عن احد مباني الحقيقي.

هذا المثال كاف، فيما نرى، لكن نبين بأي معنى مازال الإنسان غير الديني في المجتمعات الحديثة يتغلذى من فاعلية الخافية ويلقى العون منها، بدون ان يصل مع ذلك إلى اختبارها وإلى رؤية للعالم دينية تخصيصاً. ان الخافية تقدم له حلولاً يتغلب بها على مصاعب وجوده. وبهذا المعنى تقوم الخافية بدور الدين؛ ذلك ان الدين يضمن التكامل للوجود قبل ان يجعل منه خالقاً للقيم. ولعلنا نستطيع القول بمعنى ما ان الديانة والأسطورة عند الحداثيين الذين يعلنون انهم غير دينيين قد «اختفتا» في ظلمات خافيتهم - وهذا يعني ايضاً ان امكانية استعادة اختيار الحياة دينياً مازالت ترقد في أعماق نفوسهم. ولعلنا نستطيع القول ايضاً، من منظور يهودي - مسيحي، ان اللا - دين يعني «سقوطاً» جديداً للإنسان: فالإنسان غير الديني يفقد القدرة على ان يحيا الدين حياة واعية، وبالتالي على فهمه والاضطلاع به، لكنه لم يزل يحتفظ منه بذكرى في اعماق وجوده، تماماً مثلما ظل سلفه القديم، آدم، يحتفظ بعد «السقوط» الأول، بالرغم من انه قد عَمِيَ روحياً، بقدر من الذكاء يسمح له باستعادة آثار من الله مَرْتَبَةً في العالم. بعد «السقوط» الأول، سقط التدين إلى مستوى الوعي

الممزق. بعد «السقوط الثاني»، سقط الوعي إلى مستوى أدنى، إلى أعماق الخافية: لقد أصبح «شيئاً مُنسباً». هنا تتوقف اعتبارات مؤرخ الأديان، وتبدأ إشكالية الفيلسوف وعالم النفس، بل وحتى رجل اللاهوت.



# محتويات الكتاب

ص ٥	مقدمة الطبعة الفرنسية
ص ١١	المدخل
	- عندما يتجلى القدسي - نعطان من الوجود في العالم - القدسي والتاريخ
ص ٢١	الفصل الاول : المكان المقدس وتقديس العالم
	التجلي الالهي وآياته - العماء والكون - تطويب المكان : تكرار لولادة الكون - «مركز العالم» - عالماً يقع دائماً في المركز - المدينة - الكون - الاصطلاح بخلق العالم - ولادة الكون وقربان البناء - المعبد ، الباسيليكا ، الكاتدرائية - بضع نتائج
ص ٦٥	الفصل الثاني : الزمان المقدس والاساطير
	- الزمان الديني والزمان الديني - تمبلوم - تمبوس (المعبد - الزمان) - التكرار السنوي لخلق العالم - تجدد الولادة بالعودة الى الزمان الاصلي - زمان الاعياد وبنيتها - معاصرة الالهة دورياً - الاسطورة = النموذج المثالي - تحيين الاساطير - التاريخ المقدس ، التاريخ ، المدرسة التاريخية

### ١٠٩ ص الفصل الثالث : قدمية الطبيعة والديانة الكونية

- المقدس السماوي وآلهة السماء - الخيرة الدينية للحياة - ديمومية الرموز السماوية  
- بنية الرمزية المائية - التاريخ العثالي للمعمودية - عالمية الرموز - الأرض الأم - وضع  
المولود على الأرض - المرأة والأرض والخصوبة - رمزية الشجرة الكونية والديانات النباتية  
- نزع القدسية عن الطبيعة - تجليات قدمية كونية أخرى

### ١٥١ ص الفصل الرابع : الوجود البشري وتقديس الحياة

- الوجود والمنفتح على العالم - تقديس الحياة - الجسد البيت - الكون - العبور  
من الباب الضيق - طقوس العبور - ظاهراتية المسارة - اخويات الرجال وجمعيات النساء  
السرية - الموت والمسارة - الولادة الثانية والولادة الروحية - المقدس والدنيوي في العالم  
الحديث



«... يمكننا القول ان تاريخ الاديان، من اكثرها بدائية إلى اكثرها ارتقاء، عبارة عن تراكم من المظهرات الالهية، من تجليات الحقائق القدسية. ليس ثمة انقطاع لاستمرارية المظهرات الالهية بدءاً من اكثرها ابتدائية، كتجلي القدسي في شيء ما، حجر او شجر، وانتهاءً بالتجلي الاعلى الذي يتمثل لدى المسيحي في تجسد الله في يسوع المسيح. فهو دائماً نفس الفعل الخفي: تجلي شيء «مختلف تماماً»، اي حقيقة لا تتناسب إلى عالمنا، في اشياء تشكل جزءاً لا يتجزأ من عالمنا «الطبيعي» «الديني»».

«من مقدمة المؤلف»

يحاول المؤلف في هذا الكتاب سبر اغوار التجربة الدينية للانسان عبر تاريخه من خلال المجابهة الحاضرة ابداً بين ما هو قدسي يبدو خارج الطبيعة ولكنه متأصل في بنية الشعور الانساني، وبين الديني المشاهد والمعاش على المستوى الطبيعي، وذلك من خلال تحليل اساطير الحضارات وطقوسها والكشف عن رمزيتها الخافية التي تعبّر عن تلك المجابهة الدائمة بين الله والانسان، بين المقدس والديني.

المؤلف «ميرسيا إلياد» باحث من اصل مجري متخصص في الميثولوجيا وتاريخ الديانات وقد عمل استاذاً لتاريخ الدين في جامعة بوخارست، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة حيث عمل في جامعة شيكاغو إلى وقت قريب. وهو من اهم من كتب في تاريخ الدين في العصر الحاضر.

«الناشر»